الجمعية الإسلامية في اسبانيا
مدريد

أضواء على دراسة السيرة

بقلم

صالح أحمد الشامي

المكتب الاسلامي



الجمعية الإسلامية في اسبانيا
مدريد

أضواء على دراسة السيرة

بقلم

صالح أحمد الشامي

المكتب الاسلامي





لا غالب إلا الله



الطبعَة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م



المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ٣٧٧١/١١ - برقيا : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[١]، ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾[٢]، ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[٣][٤].

أما بعد:

فهذا الكتاب يضم بين دفتيه محاضرات ثمانية، موضوعها: السيرة العطرة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم. ألقاها فضيلة الأستاذ صالح أحمد الشامي على لفيف من الطلبة الجامعيين والخريجين والمهتمين بتلقي العلوم الشرعية القاطنين في إسبانيا.

وكانت ـ ولله الحمد ـ باكورة طيبة لجهد تبذله الجمعية الإسلامية في إسبانيا، تسعى من ورائه توفير المنهل العذب الصافي من العلوم الإسلامية لأبناء الجالية الإسلامية المستقرة في بلاد الغرب، يقدمه أهله والعارفون المختصون به.

---

(١) سورة آل عمران (٣)، الآية ١٠٢

(٢) سورة النساء (٤)، الآية ١

(٣) سورة الأحزاب (٣٣)، الآيتان ٧٠و٧١

(٤) «خطبة الحاجة»، طبع المكتب الاسلامي.

وقد وضعت إدارة الجمعية نصب أعينها أموراً تتوخى تحقيقها من خلال تنظيم هذه الدورات العلمية.

أولاها: إحياء الصلة بين المسلم والعلوم الإسلامية. بهدف تكوين شخصيته وتنميتها بالاتجاه الصحيح المتوازن.

ثانيها: الاستفادة من الإمكانات المتاحة، من وسائل متطورة في التعلم والتلقي التي تجاوزت الحدود التقليدية المتعارف عليها، فغدت تحقق الأهداف البعيدة والقريبة إذا ما اعتني في إعدادها واتخذ من الأسباب ما يكفل نجاحها.

ثالثها: تلافي النقص الحاصل في بلاد الغرب من قلة العلماء ذوي الاختصاص القادرين على تزويد العطشى لهذه العلوم بصورة قويمة ومتوازنة، نظراً لفقدان المؤسسات العلمية الجادة التي تعنى بالعلوم الإسلامية في هذه البلاد.

وانطلاقاً من هذه المعطيات، سعت الجمعية الإسلامية في إسبانيا لتذليل الصعاب فعرضت مشروعها على مجموعة من الأساتذة الأفاضل، فأبدوا استعدادهم وترحيبهم لتلبية أبنائهم وإخوانهم، فكان أن عُقدت (الدورة العلمية الأولى) في مجمع مدريد الاسلامي، في النصف الأخير من ذي الحجة من عام ١٤٠٩ هجرية الموافق لتموز/ يوليو ١٩٨٩، بعنوان: (أضواء على دراسة السيرة). وتعميماً للفائدة، ونشراً للخير الكثير الذي تضمه هذه الباقة العطرة من الدراسات، فقد استأذنت إدارة الجمعية الأستاذ المحاضر لنشرها فأذن لها مشكوراً.

وها نحن نضعها بين أيدي السادة القراء سائلين المولى أن ينفع بها وأن يثيب المؤلف عنا وعن المسلمين خير الثواب، وأن يتقبل منا جميعاً أعمالنا، ويجعلها خالصة لوجهه الكريم، إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأول من رجب ١٤١٠ الموافق لـ
٢٨ كانون الثاني/يناير ١٩٩٠

رياج ططري



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

لا ينكر منصف واع مكانة السيرة النبوية في توجيه الأمة والسير بها في الطريق السوي، ولا يزال المسلمون بخير ما داموا متأسين برسولهم الكريم متمسكين بهديه.

ونعتقد أن القناعة بهذا الأمر كانت الدافع الأساسي الذي جعل الكثير من علماء الأمة يقبلون على الكتابة في هذا الفن. وقد صاحب ذلك ظهور اجتهادات وتفسيرات لبعض حوادث السيرة... أو استنتاجات من بعضها الآخر.. وكان بعض ذلك مجانباً للصواب، لأنها لم تستند إلى قواعد صحيحة، أو لأنها نظرت إلى النص الواحد بعيداً عن النصوص الأخرى...

وهذه محاضرات في السيرة أحببت أن أجعلها في معالجة هذا الموضوع. وهي من حيث موضوعها قسمان:

القسم الأول: ويتناول المعلومات الأساسية لدراسة السيرة.

القسم الثاني: ويتناول دراسة لبعض الموضوعات لتكون نماذج للبحث بين يدي دارس السيرة.

والله المسؤول أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنه نعم المسؤول.

١٥ المحرم ١٤١٠ هـ

صالح احمد الشامي




لاغالِبَ إلاّ اللّه



القِسمُ الأوّل

معلومات أساسيّة





طوفان الأقصى



١

مكانة السيرة

توفي رسول الله ﷺ وظلت سيرته قائمة بين أصحابه، فهم يطبقون ما عمله تأسياً به، وينفذون ما كان يأمرهم به، ويبتعدون عما نهاهم عنه... ما تزال صورته قائمة في أذهانهم، كل شيء يذكرهم به، وكيف لا، وكل عمل يقومون به فللإسلام فيه حكم سمعوه منه ﷺ قرآناً تنزل به الوحي، أو سنة ليس مبعثها الهوى، بل هي وحي يوحى.

عن أنس قال: «قال أبو بكر ـ بعد وفاة رسول الله ﷺ ـ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن(١) نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ، فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها(٢)».

فأبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ قاما بالزيارة تنفيذاً لما كان يفعله الرسول ﷺ، وأعتقد أن بعض بكاء أم أيمن ـ رضي الله عنها ـ إنما كان مبعثه أن رأت الصاحبين يزورانها دون رسول الله ﷺ فحنت إلى أيام مضت فبكت...

---

(١) هي حاضنته ﷺ ومربيته.

(٢) رواه مسلم برقم ٢٤٥٤.

ورفض بلال أن يؤذن لأبي بكر، فلما فتحت بيت المقدس، طلب منه عمر أن يؤذن بهذه المناسبة... وأذن بلال هناك، وتذكر النبي ﷺ... قال أسلم ـ مولى عمر بن الخطاب ـ: فلم أر باكياً أكثر من يومئذٍ[١].

تذكر بلال وتذكر الذين سمعوا أذانه رسول الله ﷺ فبكوا.

وقال أبو هريرة: سمعت أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، على هذا المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ في هذا اليوم، من عام الأول، ثم استعبر أبو بكر وبكى[٢].

كل شيء كان يذكر الصحابة به ﷺ، وليس هذا فحسب، بل كان الواحد منهم يسأل ويتتبع الأحداث التي لم يحضرها، وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن البراء بن عازب قال: اشترى أبو بكر من عازب سرجاً بثلاثة عشر درهماً، قال: فقال أبو بكر لعازب: مر البراء فليحمله إلى منزلي، فقال: لا، حتى تحدثنا كيف صنعت حين خرج رسول الله ﷺ وأنت معه... وحدثه أبو بكر عن الهجرة[٣].

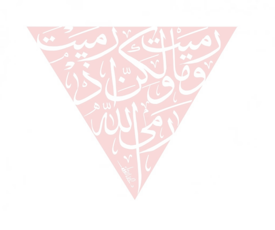
وكان عمر، رضي الله عنه، يتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ مع جار له من الأنصار، قال عمر: فكنا نتناوب النزول[٤] إلى رسول الله ﷺ، فينزل يوماً، وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك[٥].

وهكذا كانت حوادث السيرة متداولة بين الصحابة، يسأل الغائب منهم الشاهد عما فاته من مواقف ومشاهد.

وجاء جيل التابعين، ولم يكن حرصه على تتبع أخبار النبي ﷺ بأقل من حرص الصحابة على معرفة ما فاتهم من سيرته صلى الله عليه وسلم.

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٣/٣٦٩.
(٢) المسند ١/٤.
(٣) المسند ١/٢، وهو في البخاري مختصراً برقم ٣٩١٧.
(٤) يعني النزول من العوالي حيث كان يسكن عمر.
(٥) رواه مسلم عن ابن عباس في كتاب الطلاق برقم ٣٤.



ويصف عبيدالله بن عتبة مجلس ابن عباس للحديث عن السيرة فيقول: «ولقد كنا نحضر عنده فيحدثنا العشية كلها في المغازي». وكان ابن عباس قد خصص جزءاً من يومه لتدريس المغازي[1].

وفي البخاري: قال عثمان لعبيدالله بن عدي بن الخيار: أدركت رسول الله ﷺ؟ قلت: لا، ولكن خلص إلي من علمه ما يخلص إلى العذراء في سترها[2].

وأراد عبيدالله بذلك: أن علم النبي ﷺ لم يكن مكتوماً ولا خاصاً، بل كان شائعاً ذائعاً حتى وصل إلى العذراء المستترة...[3]

وقال زين العابدين ـ علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ رحمه الله: «كنا نُعَلَّم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن»[4].

وقال الزهري رحمه الله: «في علم المغازي علم الدنيا والآخرة»[5].

إنها كلمات مضيئة تبين لنا مكانة السيرة، ومدى اهتمام الجيل الأول والثاني بها، وقد ظل هذا الاهتمام ممتداً عبر القرون لأنه ضرورة لا يمكن لمسلم أن يستغني عنها، يقول ابن القيم رحمه الله:

«ومن ها هنا نعلم اضطرار العباد فوق كل اضطرار إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر... إلى أن يقول: وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به»[6].

* * *

---

(١) مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير ص ٢٣، جمعه الدكتور محمد مصطفى الأعظمي.

(٢) رواه البخاري برقم ٣٦٩٦.

(٣) فتح الباري ٧/٥٧.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٣/٢٤٢.

(٥) البداية والنهاية لابن كثير ٣/٢٤٢.

(٦) زاد المعاد ١/٦٩.



وهناك مؤشر آخر يوضح لنا هذه المكانة، يحسن بنا ألا نغفله ونحن نتحدث عن هذا الموضوع، هو كثرة الكتب التي ألفت في السيرة النبوية، بدءاً من عهد التابعين - حيث بدأ التأليف المنهجي في السيرة[1] - وحتى يومنا الحاضر، فما من قرن إلا وظهرت فيه إلى الوجود أعداد غير يسيرة من مؤلفات السيرة، وما كان ذلك إلا تلبية للحاجة، وشعوراً من علماء هذه الأمة - على تتابع القرون - بأثر هذا الفن في توجيه الأمة في المسار الصحيح.

وفي مطلع هذا القرن - عام ١٤٠٢ هـ - ظهر كتابان يمكن الاستفادة منهما في إلقاء الضوء على كثرة الكتب المؤلفة في السيرة.

والكتاب الأول من تأليف الدكتور صلاح الدين المنجد، وعنوانه: «معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ»[2]، وقد أشار المؤلف فيه إلى (٢٤٩١) عنواناً، ومع ذلك يقول في مقدمته: وما كدت أبدأ عملي حتى أدركت سعته وامتداده وتشعبه وصعوبته، فالتصانيف والرسائل التي خصت برسول الله، سلام الله عليه، أو تتعلق به آلاف مؤلفة...

واقتصر المؤلف على ما كتب باللغة العربية.

والكتاب الثاني من تأليف الدكتور محمد ماهر حماده، وعنوانه «مراجع مختارة عن حياة رسول الله ﷺ»[3].

وقد ذكر المؤلف فيه من الكتب العربية (٧٥٤) عنواناً، ومن المؤلفات والكتابات التي تناولت السيرة المطهرة باللغة الأجنبية (١١٦٩) عنواناً.

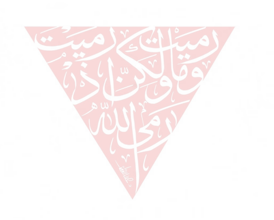
ومما يزيد الصورة وضوحاً في أذهاننا ما قاله المرحوم السيد سليمان الندوي:

---

(١) جاء في ترجمة المغيرة بن عبد الرحمن أنه أخذ المغازي من أبان بن عثمان، الذي كان كثيراً ما تقرأ عليه ويأمر بتعليمها [طبقات ابن سعد ٥/٢١٠] وهذا يعني أنها كانت مدونة، فكانت تقرأ عليه.

(٢) طبع في دار الكتاب الجديد، بيروت.

(٣) طبع في دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض.



«والذي ألَّفه الناس في سيرة النبي ﷺ من عهد الرسالة إلى يومنا هذا في مختلف الأوطان الإسلامية والأجنبية في معظم لغات العالم يعد بالألوف، وأعتبر ذلك بما صنف باللغة الأوردية الحديثة وحدها في موضوع السيرة النبوية، مع أن الأوردية لم تصر لغة تأليف إلا منذ قرنين على الأكثر، وفي تقديري أن ما صنف بها وحدها في السيرة النبوية يبلغ ألفاً إن لم يزد عليه».

«ودع عنك المسلمين وما صنفوا في سيرة نبيهم، فإنهم يحبونه حباً عظيماً، ويقدمون ذلك بين يدي الله فرطاً وذخراً لهم يوم القيامة، وتعال ننظر إلى ما ألف من سيرته ممن لا يؤمنون بنبوته، ولا يوقنون برسالته، فإننا نجد في الهند نفسها على اختلاف مللها ـ من الهنادك والسيخ والبرهموسماج ـ كثيراً من علمائهم قد ألفوا في سيرته ﷺ، أما الأوروبيون الذين لا يدينون بالإسلام ولا يؤمنون بالرسالة المحمدية فقد صنف منهم في سيرة النبي ﷺ حتى المبشرون من دعاة النصرانية والمستشرقون، عناية منهم بالتاريخ وإرواء لظمئهم العلمي، ويعد ما ألفوه في ذلك بالمئات. وكنت قرأت في مجلة المقتبس التي كانت تصدر في دمشق قبل نحو أربعين سنة إحصاء لما صنف في السيرة بمختلف اللغات الأوربية فبلغ نحو ثلاثمائة كتاب وألف كتاب، ولو أضفنا إلى هذا العدد ما صدر من المطابع الأوربية في السيرة النبوية خلال الأربعين سنة بعد ذلك الإحصاء الذي نشرته مجلة المقتبس لأربىٰ على ذلك كثيراً»[1].

هذه الكثرة من التأليف في موضوع واحد إن دلت على شيء فإنما تدل على مكانة الموضوع، وهذا ما اضطر «مرجليوت» الذي كان أستاذ اللغة العربية في جامعة أوكسفورد ـ وهو من المتحاملين على الإسلام الذين حاولوا أن يشوهوا السيرة الشريفة ـ أن يعترف في مقدمة كتابه «محمد» وهو حلقة في سلسلة عظماء الأمم بأن الذين كتبوا في سيرة محمد ﷺ لا ينتهي ذكر أسمائهم

(١) الرسالة المحمدية. تأليف السيد سليمان الندوي، وهي مجموعة محاضرات، وتاريخ إلقائها ١٣٤٤ هـ. المحاضرة الثالثة.

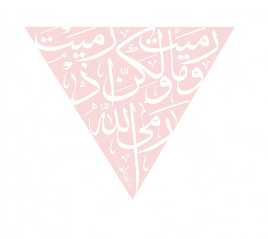
وأنهم يرون أن من الشرف للكاتب أن ينال المجد بتبوئه مجلساً بين الذين كتبوا في السيرة المحمدية»[1].

ما ذكرناه حتى الآن يعد كافياً لبيان مكانة السيرة بشكل مجمل، ولكني أحب أن ألج باب التفصيل سعياً في استكمال معالم الصورة، وأداء للواجب العلمي فأقول:

مما يجلي لنا هذه المكانة ويبينها بياناً شافياً، أن نجيب على السؤال التالي: لماذا ندرس السيرة؟

---

(١) المرجع السابق، المحاضرة الثالثة.



لماذا ندرس السيرة؟

إني حينما طرحت هذا السؤال على نفسي وجدتني أمام أكثر من إجابة، ولكن هذه الإجابات ليست متعارضة ولا متناقضة، ولذا يمكن أن تشترك مع بعضها لتكون جواباً أو بعض الجواب على هذا السؤال:

١) الاتباع والتأسي

إن اتباع هذا النبي الكريم هو الدين الذي يدين به المسلم لله تعالى، وهو السبيل الذي يحصل به على محبته سبحانه، قال تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**﴾[١].

والاتباع هو اقتداء في الجانب العملي التطبيقي، سواء أكان ذلك في القول أو الفعل، أي أن تحاول أن تفعل في موقف ما، ما عمله ﷺ في مثل هذا الموقف... وهذا الاتباع ينبغي أن يكون عاماً، يشمل ما كان في درجة الفروض والأركان، وكذلك ما كان في درجة النوافل والمندوبات[٢]

وقد تأكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً**﴾[٣]. وهذه الآية وإن

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣١.

(٢) المثال على الاتباع في مجال الفروض صلاتنا كما كان يصلي ﷺ اتباعاً لقوله (صلوا كما رأيتموني أصلي). والمثال على الاتباع في مجال السنن... حرصنا على التيامن كمبدأ التزمه ﷺ في شأنه كله.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٢١.



كانت خاصة في السبب والمناسبة، فهي عامة في مدلولها اللفظي. فكل مسلم مطالب بأن يجعل من الرسول الكريم أسوة له في كل موقف من مواقفه.

إن محمدًا ﷺ كان الطفل اليتيم، وكان الشاب المستقيم في سلوكه وأخلاقه، وكان الداعية إلى الله، وقد تلقى أصنافاً من الإيذاء في سبيل ذلك، وكان الزوج الوفي، وكان الوالد الرؤوف، وكان المربي العظيم، وكان القاضي والحاكم، وكان القائد الفذ... وكان وكان... وهو قبل هذا وذاك رسول الله.

ولم يكن اجتماع هذه الأمور عنده ﷺ من باب المصادفة، فكل شيء عند الله تعالى بمقدار، والآية الكريمة عندما تقول: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾ فما من مسلم أياً كان عمله، وأياً كان شأنه، إلا ويجد ما يخصه مما يتأسى به بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

وهنا نقول: كيف يكون اتباع أو تأس دون معرفة وافية بالسيرة المطهرة؟ إننا إذ ندرس السيرة فإنما نضع بين أيدينا خارطة الطريق المستقيم التي توصلنا إلى شاطئ الأمان.

ومع هذا فثمن الاتباع محبة الله تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾.

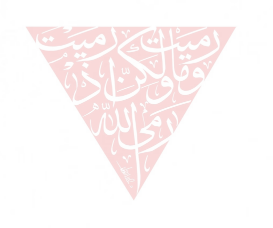
٢) تحقيق الحب:

حب هذا النبي الكريم فرض في شريعة هذا الدين، فعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[١].

وأن تكون الطاعة فرضاً فذلك أمر مسلم به، فالإنسان باستطاعته أن ينفذ أمراً ما صدر إليه، ممن يحب أو ممن يكره، طالما أنه في حدود طاقته، أما أن يكون الحب فرضاً فذاك أمر قد يستغربه من لا يعرف طبيعة هذا الدين.

---

(١) متفق عليه.



لا شك بأن الحب عاطفة، والعواطف لا تدخل تحت مظلة الأمر والنهي، بل إنها لا تدخل في مجال الإرادة الشخصية، وقد قال الرسول الكريم نفسه: (اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك) تقول عائشة: «يعني القلب»(١). فعاطفة الحب ليست في إطار ما يملك الإنسان أن يتحكم به.. ولكنها تدلف إلى النفس الإنسانية بعيداً عن ميدان الإرادة، ومع ذلك تأبى هذه الشريعة أن تدخل إلى النفس عن طريق الأمر، فربما نفذ الإنسان الأمر مكرهاً، والإكراه مرفوض في قواعد هذا الدين ﴿**لا إكراه في الدين**﴾(٢)، وأبت إلا أن يكون الحب هو العلاقة التي تحكم هذا الارتباط بين المسلم وبين نبيه ﷺ، وبين المسلم ودينه، وذلك سمو لا تعرفه علاقات البشر إلا أن تكون ناتجة عن هذا المنهج..

والسؤال المطروح: كيف نحقق هذا الحب في حياتنا؟

وفي سبيل إيضاح هذه القضية أقول:

يبدأ الحب بموقف إعجاب، ثم يتأكد هذا الإعجاب فيتحول إلى حب، والحب قوة لا تقف في وجهها العوائق مهما عظمت، ولعل الأمثلة توضح لنا ذلك:

في أعقاب بدر، جلس في مكة صفوان بن أمية وعمير بن وهب، وقد قتل والد الأول في هذه المعركة، وأسر ابن الثاني، كان الحقد يغلي في نفسيهما، وكان الكره على أشده تجاه محمد ﷺ... وكانت بينهما اتفاقية، عقدها هذا الكره والبغض المشترك، يقوم عمير بموجبها باغتيال الرسول ﷺ، ويقوم صفوان بتحمل دينه والنفقة على عياله إن أصابه مكروه.

وذهب عمير لتنفيذ المهمة، وقد سم سيفه وأعد عدته... وأناخ بباب المسجد، ثم دخله، فلما رآه عمر سارع إليه وأخذ بتلابيبه، فلما رآه رسول

(١) رواه أبو داود في كتاب النكاح، باب القسم بين النساء، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ويقول: اللهم..

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.



الله ﷺ قال: أرسله يا عمر، ادن يا عمير. فدنا ثم قال: أنعموا صباحاً ـ وكانت تحية أهل الجاهلية ـ فقال ﷺ: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة، فقال: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد...

محاورة فيها كل العطف والحنان من الرسول الكريم.. ثم سأله: ما جاء بك؟ قال: جئت لهذا الأسير، قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال: اصدقني ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لهذا. قال: بل قعدت أنت وصفوان في الحجر، ثم قلت لولا دين علي.. لخرجت حتى أقتل محمداً، والله حائل بينك وبين ذلك.. وتشهد عمير شهادة الحق وأطلق له أسيره، وأصبح واحداً من المسلمين.

إنه موقف إعجاب بالحلم وسعة الصدر، إعجاب بذلك اللقاء الذي تلقاه به رسول الله ﷺ الذي يفيض حناناً وعطفاً.. دعه يا عمر... ادن يا عمير... يقول له هذا وهو على علم بما جاء له.

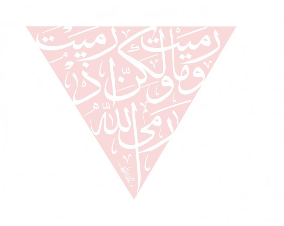
وأما صفوان... فقد كان إسلامه بعد فتح مكة، وندعه يتحدث كيف أحب رسول الله ﷺ. قال صفوان: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى صار وإنه أحب الناس إلي[1].

بدأ صفوان بالإعجاب بالنبي ﷺ من زاوية واحدة، هي زاوية الكرم، وإذا به أمام صورة من الكرم لم يشهدها في حياته قط ويتحول الإعجاب إلى حب.

ويوضح لنا أنس هذا المعنى حيث يقول: إن رجلاً سأل النبي ﷺ فأعطاه غنماً بين جبلين، فأتى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء رجل لا يخاف الفاقة، وإن كان الرجل ليجيء إليه ما يريد إلا الدنيا،

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٣١٣.



فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليه من الدنيا بما فيها[1].

والأمثلة كثيرة.

وإذن ما دام حب النبي فرضاً فينبغي أن نسلك السبيل إلى تحقيقه، والسبيل هو التعرف على سيرته، وعندها فإن كنت ممن يحب الشجاعة ويعجب بها فناهيك بشجاعته ﷺ، وإن كنت تعجب بالكرم فناهيك بكرمه، وإن كنت تعجب بالحلم فناهيك بحلمه، وإن كنت ممن يعجب بالبلاغة والفصاحة والكلمة المشرقة، فأنت أمام الفصاحة وقد جمعت من أطرافها... وإن كنت.. وكنت.

إن صلتنا بالسيرة تجعل هذا الحب يدلف إلى قلوبنا دون أن يطرق الأبواب، إنه يفرض نفسه فرضاً دون استشارة، وهكذا تتحقق العاطفة المرجوة، التي يترتب عليها بدورها أحكام والتزامات.

٣) تلبية الفطرة في تعشق البطولة:

في فطرة الإنسان ـ صغيراً أو كبيراً ـ ميل إلى سماع قصص البطولة، وفي سبيل تلبية هذه الحاجة النفسية نشأ جانب كبير من الأدب العالمي الذي يعتمد في غالب الأحيان على التحليق في عالم الخيال...

والبطولة ـ هنا ـ هي موقف متقدم في ميدان ما من ميادين الحياة، فهي الشجاعة في ميدان القتال، وهي الكرم في ميدان العطاء، وهي السماحة في ميدان الحقوق، وهي العفو في ميدان القدرة... وهي وهي...

إن تلك المواقف الفذة تستهوي النفس الإنسانية فتصغي إلى سماعها، ويكون لها الأثر الكبير في النفس، حتى ولو كانت مواقف من نسج الخيال أخذت مكانها في قصة كاتب.

---

(١) رواه أحمد بتمامه، المسند ٣/٢٥٩، وروى مسلم القسم الأول منه برقم ٢٣١٢.



وإذا كان الأمر كذلك فإن السيرة تروي هذا الظمأ، وتلبي حاجة النفس من واقع بعيد عن الخيال يمتاز بالصدق والواقعية، وإن كان في كثير من المواطن أكبر من الخيال، وأقف أمام مثال واحد:

كلنا يعلم أمر ذهابه ﷺ إلى الطائف بعد أن يئس من استجابة قريش، وكانت النتيجة ذلك الرد السيء من أهل الطائف وأمرائها... فقد أغروا سفهاءهم وصبيانهم بضربه بالحجارة حتى أدميت عقباه واختضبت نعلاه بالدماء..

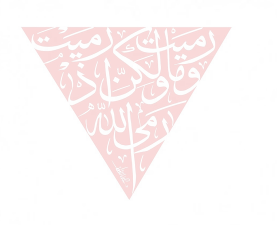
وجلس بعد أن غادر البلد يدعو ذلك الدعاء المشهور: اللهم أني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس...

وفي هذا الموطن يأتي جبريل وبصحبته ملك الجبال ـ كما في الصحيحين ـ ليقول له: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم... وقال له ملك الجبال: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت. قال: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً..

هذه البطولة في الصبر وتحمل الأذى الجسدي، ولقد كان الأذى النفسي أكبر منه، بطولة فريدة لا يستطيع تقديرها حق قدرها إلا من كتب له بعض المعاناة في دعوته إلى الله تعالى.

وبطولة أخرى لا تقل عن الأولى ذلك الحلم الذي تمثل في رده على ملك الجبال... إن جبريل وصاحبه وصلا إليه في ذروة الأسى والألم وقد نزلا إليه بأمر الله لينزلا العقوبة بأهل مكة الذين كانوا السبب فيما أصابه... ولا شك أن الرسول ﷺ تداعت إلى ذهنه أحداث الماضي خلال سنوات من المشقة والتعب والمعاناة... إنهم يستحقون العقوبة.. ولولا ذلك لما أنزل الله ملك الجبال... ومع ذلك لا يقبل أن تنزل بهم العقوبة ويقف حائلاً دون ذلك.

إنها بطولة دونها بطولة الميادين ـ وهو ﷺ المجلي في كليهما ـ وقد قال



ﷺ في الحديث المتفق عليه: ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب...

وبطولة ثالثة.. ذلك الأمل الثابت في المستقبل واليقين الذي لا يتزعزع بانتصار الدعوة... بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، إنه يقول هذا وليس هناك أي بارقة أمل... يقول هذا وهو في موقفه ذاك لا يدري كيف يدخل مكة ثانية بعد أن خرج منها... إنها البطولة...

إن دراسة السيرة تلبي لنا هذه الحاجة النفسية بواقع صادق، فتركن النفس فيه إلى إعجاب حق، بعيد عن الزيف والمبالغة[١].

٤) تفسير كثير من الآيات الكريمة:

إن وقائع السيرة وأحداثها كثيراً ما تلقي لنا الضوء على تفسير بعض الآيات الكريمة، فالسيرة من أول مهماتها تسجيل الوقائع زمن الرسول الكريم ﷺ وكثيراً ما كان القرآن ينزل تعقيباً على تلك الوقائع، ومن هنا كانت الصلة وثيقة بين السيرة والقرآن... فهو كثيراً ما تنزلت آياته بتسجيل أحداث السيرة.. وهي كثيراً ما بينت لنا سبب النزول..

وأكتفي بمثال واحد.. فهذا الجانب واضح والأمثلة كثيرة.

قال تعالى: **﴿يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾**[٢].

وهناك في القرآن خمس عشرة آية بدأت بقوله تعالى: **﴿يسألونك﴾** لا نجد فيها هذه اللهجة القوية[٣] التي تأمر بالتقوى وإصلاح ذات بينهم والطاعة... ونتساءل عن العلاقة بين ختام الآية وبدئها: الأمر الذي يحتاج

---

(١) ويمكن أن نضيف إلى ذلك سيرة أصحابه التي هي من صنعه ﷺ.

(٢) سورة الأنفال الآية ١.

(٣) يستثنى من ذلك ما ورد بشأن المشركين في قوله تعالى ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾ البقرة ٢١٧.

إلى بيان فالسؤال يحتاج إلى جواب، ولكن هنا جواب وأوامر تعقيباً عليه تحتاج إلى تنفيذ. . .

وتعطينا السيرة الإيضاح الكافي.

فعن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد نصيب فيها، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به. فنزلت ﴿يسألونك ـ﴾ فقسمها رسول الله بين المسلمين. . .[1].

وهكذا نلاحظ أن تصرف المسلمين إزاء الغنائم احتاج إلى هذا التوجيه والتربية، فهم ما زالوا في بداية الطريق.

وبهذا كانت السيرة بياناً لهذا الأسلوب في سياق الآية الكريمة.

٥) التعرف على الجهد المبذول في إزاحة الجاهلية:

إنه مما يعرفنا ـ إضافة لما سبق ـ بقدر هذا الرسول الكريم أن نتعرف على ذلك الجهد العظيم الذي بذله ﷺ في إزاحة الجاهلية.

وإزاحة الجاهلية ليست أمراً سهلاً، وهذه الإزاحة متعددة المواقع:

فهناك الإزاحة في ميدان العقيدة.

وهناك الإزاحة في ميدان الفكر.

وهناك الإزاحة العسكرية.

وهناك الإزاحة الاجتماعية.

---

(١) رواه أحمد، كما جاء في تفسير ابن كثير.



وأختار المثال لهذه الفقرة من النوع الأخير...

جاء الإسلام والناس طبقات... بل والطبقة الواحدة درجات... وكان من القواعد الأولى في هذا الدين المساواة بين الناس... وإلغاء هذا التمايز الذي لا يستند إلى أمر منطقي... وأصبح في ظل الإسلام مفهوم آخر للسيادة بين الناس يوضحه قول عمر: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» يعني بلالاً.[1] هذه السيادة التي لا يتمسك بها من يعترف الناس له بها... وإنما هي اعتراف لصاحب الفضل بفضله، وهكذا غير الإسلام المفاهيم...

ولكن هذا التغيير قد احتاج إلى جهد كبير.. فالناس المسلمون وإن اعترفوا ظاهراً بالمساواة فتحويل هذا الاعتراف إلى واقع لم يكن أمراً ميسوراً وكان على الرسول ﷺ أن يمارس عملية التطبيق بنفسه..

ومن هذا المنطلق بدأ الرسول ﷺ يلغي عملياً الحواجز بين الناس في أمر الزواج فكان يقترح على العربيات الأصيلات أن يتزوجن من الموالي، ومن ذلك أن خطب ﷺ بنت عمته زينب بنت جحش لمولاه زيد بن حارثة... وترفعت زينب لشرفها وجمالها ونزل قوله تعالى: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم...**﴾ وانصاعت زينب لأمر الله وتم الزواج...

ولكن الأمور لم تستقم بين الزوجين... ورغب زيد في طلاقها... وكان الرسول ﷺ يقول لزيد: أمسك عليك زوجك، علماً بأن الله تعالى قد أعلمه بأنها ستكون زوجاً له.

وكانت إرادة الله تعالى أن يكون زواج زينب من زيد كسراً لحاجز كبير.. يتعارض مع مبادئ الإسلام، وكانت إرادته تعالى - أيضاً - أن يكون زواج زينب من الرسول ﷺ كسراً لحاجز آخر أبطله الإسلام - وكان قائماً في الجاهلية - وهو الزواج من مطلقة متبناة.

إن هذين الأمرين الاجتماعيين كان من السهل أن يأتي بهما التشريع، لكن عملية التطبيق في الواقع كانت بحاجة إلى جهد الرسول ﷺ.

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٧٥٤.

ولقد كان ذلك ثقيلاً على نفس الرسول ﷺ، لذلك أخفى الخبر بإعلام الله له بالزواج من زينب، لأن زواجه من مطلقة متبناه أمر مستغرب في تلك البيئة، وكانت إرادة الله أن يكون إبطال هذا الأمر عملياً، فكان فيه ما فيه من الجهد النفسي والجهد الاجتماعي..

إن سلطان الأعراف والتقاليد والعادات على الحياة الاجتماعية كبير، ولذا كان على الرسول ﷺ أن يلغي منها ما يتعارض مع الإسلام إلغاء عملياً، حتى يثبت المعنى الإسلامي الجديد مكان العرف الجاهلي الملغي.

إن معرفة الجاهلية ومعرفة الإسلام تبين لنا الجهد المبذول والمكابدة الكبيرة التي بذلت حتى أصبح المعنى الإسلامي هو العرف القائم[1].

هذا الجهد.. يمكن التعرف عليه بدراسة السيرة.

٦) التعرف على الجيل الأول:

ومن خلال دراسة السيرة نتعرف على الجيل الأول الذي شرفه الله تعالى برؤية نبيه ﷺ والإيمان به..

وكما اختار الله تعالى محمداً ﷺ ليكون صاحب الرسالة الخاتمة، فقد اختار أيضاً هذا الجيل ليكون التطبيق العملي لشرائع هذه الرسالة، ومن ثم ليكون الحامل لها إلى الأجيال التي تليه.

وقد حوى هذا الجيل من القمم السامقة ما لم يجمعه جيل آخر، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا: ما لم تجمعه أجيال، إنه الجيل الذي رأى آيات الله وهي تتنزل ليكون سمعه أول من يتلقاها ويتفاعل معها بإيمان لا مثيل له، وهو الجيل الذي كان يسأل فيأتيه الجواب آيات من الذكر الحكيم، ويشتكي فينزل الوحي مبلغاً سماع هذه الشكوى... ويخطئ فتتنزل بقبول توبته الآيات الكريمة.

---

(١) وانظر أمثلة ذلك في «من معين السيرة» ص ٣٠٩ و٤٩٩ ـ المكتب الإسلامي ـ



ومن هنا كان الحديث الشريف (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم. . .) بياناً للواقع. فهو ذروة الخط البياني في تاريخ البشرية كلها. . . أما بالنسبة للأجيال بعده فذلك بنص الحديث الشريف (ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)، وأما بالنسبة للأجيال السابقة فذلك ما دونه القرآن الكريم وهو يتحدث عن أقوام الرسل السابقين.

فقد قال قوم موسى لموسى: **﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾**[1] وقال الصحابة لرسولهم الكريم: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون)[2]. ولم يقولوا كما قال الحواريون: **﴿يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟﴾**[3] فقد كانوا أكثر أدباً مع الرسول ﷺ فضلاً عن أدبهم أمامه سبحانه وتعالى.

أليس من سعادة المرء النفسية والفكرية والإيمانية أن يعيش مع هذا الجيل بفكره يتخيله وقد كان واقعاً في الحياة في يوم مضى.. فيعرف له فضله، ويعرف له حقه... ويتعلم كيف يكون الإيمان وكيف يكون الحب، وكيف تكون الطاعة...؟

ثم يعود بعد ذلك إلى الأصل مرة أخرى فيدرك أن هذا إنما كان نتاجاً لجهد عظيم قام به هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وبعد:

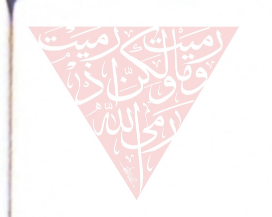
ففي دراسة السيرة قضايا كثيرة ما أظنني قادراً على استيعابها. فهي سجل لتربية الرجال يرجع إليه كل مرب كبير، وهي شحذ للهمم يرجع إليه كل مصلح عظيم، وهي إيقاظ للإيمان يرجع إليه كل داعية واع... وهي توحيد للمفاهيم والقيم...

وهي بعد هذا كله تجعل المتصل بها أقرب وأقرب من هذا الرسول

(١) سورة المائدة، الآية ٢٤.

(٢) كان ذلك قول المقداد بن عمرو في يوم بدر.

(٣) سورة المائدة، الآية ١١٢.



الكريم «حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه» كما قال ابن القيم رحمه الله[1]. وفي هذا سعادة الدنيا والآخرة، وكفى بها من سعادة.

وإذا عرفنا أننا ندرس السيرة لكل هذه الأمور ولغيرها أمكننا أن نعرف مكانة السيرة ودورها.

---

(١) قال في مدارج السالكين ٣/٢٦٨ «... فجعله - أي الرسول ﷺ - إمامه وأستاذه، وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهادياً إليه، فيطالع سيرته ومبادئ أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه وحركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه».



٢

دراسة السيرة

«معلومات أساسية»

١) لمحة تاريخية:

السيرة لغة: السنة والطريقة والهيئة.

والسيرة ـ إذا أطلقت ـ فالمراد بها تلك الأحداث الجهادية التي وقعت إبان حياة الرسول ﷺ بدءاً من بعثته وانتهاء بوفاته.

وهذا الموضوع هو جزء من السنة التي سجلت لنا أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته، وإذا كانت السيرة ـ اصطلاحاً ـ هي بعض السنة، فالحديث عن تاريخ تدوينها هو الحديث عن تدوين السنة نفسها.

ومع هذا فإن هذا الجانب من حياته ﷺ قد أخذ منحى الاختصاص من وقت مبكر وكان العنوان الأول له هو «المغازي»، ولنستمع إلى زين العابدين رحمه الله الذي كانت وفاته سنة ٩٤ هـ وهو يقول: «كنا نُعَلَّمُ مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن»، إن هذه الكلمة لتؤكد أن هذا الفن قد أخذ طرقه واستكمل عناصره قبل نهاية القرن الأول الهجري.

ليس هذا فحسب، بل لمعت أسماء في هذا الفن وأضحت صاحبة اختصاص، منها:

عروة بن الزبير بن العوام، المحدث الفقيه الذي كانت وفاته سنة ٩٢ هـ وقد أخذ عنه ابن إسحاق والواقدي والطبري..

ومنها: أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ هـ

وقد تمكن هذان العلمان لقربهما من بيت النبوة أن يجمعا من الأخبار ما لم يجمعه غيرهما.

وقد أخرج كتاب عروة أخيراً الدكتور محمد مصطفى الأعظمي بعد أن استخرجه من الأسفار المؤلفة في السيرة[1].

ومن الأسماء التي لمعت في هذا الفن الإمام محمد بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ الذي جمع السنة في عهد عمر بن عبد العزيز بأمره.

ثم جاء موسى بن عقبة (ت ١٤١) ثم معمر بن راشد (ت ١٥٠) ثم جاء شيخ رجال السيرة محمد بن إسحاق (ت ١٥٢).

وقد ألف ابن إسحاق كتابه «المغازي»، وهذا الكتاب لم يصلنا وإنما وصلنا أكثره عن طريق كتاب عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨) المسمى «السيرة النبوية» وذلك عن طريق شيخه البكائي تلميذ ابن إسحاق، وقد أضاف ابن هشام إليه بعض ما سمعه من مشايخه مما لم يذكره ابن إسحاق.

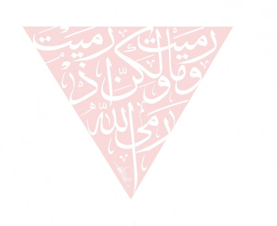
ويعد كتاب «المغازي» للواقدي (ت ٢٠٧) من الكتب الأولى التي وصلت إلينا.

كما ألف كاتبه وتلميذه محمد بن سعد كتاب الطبقات، وسار في تصنيفه على ذكر أسماء الصحابة والتابعين بعد ذكر الرسول ﷺ، بحسب طبقاتهم وقبائلهم.

ثم انطلقت عملية التأليف في السيرة بين الشرح والاختصار والنظم، ثم برزت بعد ذلك جوانب جديدة في السيرة استهوت بعض المؤلفين مثل

---

(١) وهو من منشورات مكتب التربية العربي، وقد طبع عام ١٤٠١ هـ.



«دلائل النبوة» التي تعنى بالمعجزات، و«الشمائل» التي تعنى بوصف سلوك النبي ﷺ وأخلاقه وصفاته وما يتعلق بذلك، و«الموالد» التي تعنى بالحديث عن مولده صلّى الله عليه وسلّم.

كانت تلك مقدمة تاريخية موجزة بين يدي بحثنا(١).

٢) كتب مشهورة:

ومن بين كتب السيرة الكثيرة هناك كتب أخذت شهرة واسعة في العالم الإسلامي كله منها: الشفا، وزاد المعاد، والمواهب اللدنية، ولا بأس بوقفة يسيرة نأخذ فيها فكرة مجملة عن كل منها.

أما الكتاب الأول فعنوانه الكامل «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» مؤلفه القاضي عياض بن موسى الأندلسي (٤٧٦ ـ ٥٤٤ هـ). ويعد هذا الكتاب من أشهر كتب الشمائل، على الرغم من اتجاهه الخاص الذي يشير المؤلف إليه من خلال عنوان الكتاب، فقد كان تأليفه جواباً على سؤال يتضمن طلب التعريف بقدر المصطفى ﷺ وما يجب له من التوقير والإكرام.

وقد أثنى كثيرون على هذا الكتاب، يقول المرحوم السيد سليمان الندوي: وأحسن كتاب في ذلك ـ أي الشمائل ـ «الشفا» للقاضي عياض الأندلسي(٢).

---

(١) يمكن لمن أراد التوسع في هذا البحث الرجوع إليه في مظانه ومنها: كتاب (مصادر السيرة النبوية وتقويمها) تأليف الدكتور فاروق حمادة، طباعة دار الثقافة ـ الدار البيضاء. وهناك خلاصة ضافية في مقدمة سيرة ابن هشام بتحقيق مصطفى السقا وزميليه.

(٢) قال الندوي بعد ذلك: «وقد قال لي يوماً ـ وأنا في فرنسا ـ مستشرق اسمه ماسينيون: يكفي لتعرف أوربا محاسن رسول الله محمد ﷺ ومحامده أن ينقل كتاب الشفا للقاضي عياض إلى إحدى اللغات الأوربية» [الرسالة المحمدية ـ المحاضرة الرابعة].
أقول: إنا نشك في نصيحة ماسينيون، ذلك أن كتاب الشفا وضع في جانب محدود من السيرة للمسلمين، والمؤلف في حديثه يستند على إيمان مسبق لدى القارئ، وما يقدم لغير المسلمين ينبغي أن يصاغ خصيصاً لذلك.



والكتاب على جلالة قدره لم يخل من الأحاديث الضعيفة، بل والموضوعة، وقد نبه على ذلك جلال الدين السيوطي - رحمه الله - في كتابه «مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا».

وقد طبع الكتاب طبعة محققة في دمشق، بدار الوفاء للطباعة والنشر، وقام بتحقيقه الأستاذ محمد أمين قره علي وزملاؤه بإشراف المرحوم الشيخ عبد الكريم الرفاعي.

وأما الكتاب الثاني فهو «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ) وكثيراً ما يشار إليه باسم «الهدي النبوي».

واسم هذا الكتاب يدل على مضمونه، فقد سجل فيه مؤلفه الهدي الكريم والسنة النبوية في كثير من أمور الحياة، مما يسهل على الناس أمر التأسي به ﷺ.

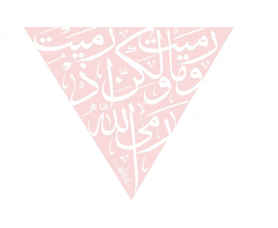
وقد قام بتحقيقه السيدان شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، وله طبعات عديدة.

وأما الكتاب الثالث فهو «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» تأليف أحمد ابن محمد القسطلاني (٨٥١ - ٩٢٣ هـ) وكان الدافع لتأليف هذا الكتاب هو إعجاب مؤلفه بكتاب «الشفا» وقد سار على نهجه بشيء من التوسع، واستكمل فيه كثيراً من الجوانب التي لم يتعرض لها كتاب الشفا، كما استفاد كثيراً من كتاب «زاد المعاد».

و«المواهب» أوسع وأشمل من الكتابين المذكورين، كما أنه أكثر دقة في ترتيب أبوابه وفصوله.

وقد أثنى عليه كثيرون؛ جاء في كتاب شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي:

«ومنها - أي من كتب القسطلاني - المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، وهو كتاب جليل المقدار عظيم الوقع كثير النفع، ليس له نظير في بابه».



وقال الدكتور محمد ماهر حماده: تمتع كتاب القسطلاني الذي ألفه سنة ٨٩٩ هـ - ولا يزال يتمتع - بسمعة كبرى في العالم الإسلامي عبر العصور... وقد بلغ من شهرة هذا الكتاب وأهميته أن شرحه وعلق عليه عدد من المؤلفين.

والكتاب مطبوع سنة ١٣٢٦ هـ وعنها صور في بيروت ويقع في مجلدين من القطع الكبير(١).

وقد قام الزرقاني بشرح الكتاب شرحاً واسعاً على طريقة المزج. الأمر الذي يجعل الرجوع إليه ليس في متناول الجميع، وكم كنا نتمنى لو أن الزرقاني أنشأ كتاباً مستقلاً ضمنه المعلومات الذي ذكرها في شرحه..

واستكمالاً للبيان ففي الجدول التالي مقارنة بين الكتب الثلاثة من حيث الموضوعات، أثبت فيها موضوعات المواهب، وهناك إشارة على الموضوع الذي شارك فيه الشفاء، أو زاد المعاد، وليس في الشفا موضوع لم يذكر في المواهب، وكذلك في زاد المعاد سوى موضوع «أقضيته وأحكامه ﷺ»(٢).

---

(١) ليس للكتاب فيما أعلم طبعة محققة، ويقوم المؤلف بتحقيقه.

(٢) هو الموضوع الوحيد الذي لم يرد في المواهب اللدنية. إذ هو ألصق بالفقه منه بالسيرة.

مقارنة لبيان البحوث المشتركة في الكتب المذكورة

المواهب اللدنية	الشفا	زاد المعاد
المقصد الأول:		
في السيرة بكاملها		من البعثة إلى الوفود
المقصد الثاني:		
ف١ أسماؤه الشريفة	√	√
ف٢ أولاده الكرام		√
ف٣ أزواجه وسراريه		√
ف٤ أعمامه وعماته وجداته		أعمامه وعماته
إخوته من الرضاعة		
ف٥ خدمه، حرسه، مواليه		√
ف٦ أمراؤه، رسله		√
كتَّابه، كتبه		√
ف٧ مؤذنوه، خطباؤه، شعراؤه وحداته		√
ف٨ آلات حروبه		√
ف٩ خيله ودوابه		√
ف١٠ من وفد عليه (الوفود)		√
المقصد الثالث		
ف١ كمال خلقته وجمالها	√	
ف٢ عظيم أخلاقه	√	
ف٣ ١ن المأكل والمشرب	√	√
٢ن اللباس	√	√

المواهب اللدنية	الشفا	زاد المعاد
ن٣ نكاحه	√	√
ن٤ نومه	√	
المقصد الرابع: المعجزات والخصائص		
ف١ المعجزات	√	
ف٢ ما خص به		
خصائص من الواجبات		
خصائص من المحرمات		
خصائص من المباحات		
خصائص الفضائل	√	
خصائص أمته		
المقصد الخامس: الإسراء والمعراج	√	
المقصد السادس		
ن١ تعظيم قدره	√	
ن٢ أخذ الميثاق له		
ن٣ شهادته له تعالى بالرسالة		
ن٤ ذكره في الكتب السالفة		
ن٥ أقسامه تعالى بشأنه	√	
ن٦ وصفه بالنور والسراج		
ن٧ آيات وجوب طاعته	√	
ن٨ آيات الأدب معه	√	
ن٩ رده تعالى على عدوه		
ن١٠ إزالة الشبهات عن آيات في حقه		

مقارنة لبيان البحوث المشتركة في الكتب المذكورة

المواهب اللدنية	الشفا	زاد المعاد
المقصد السابع: وجوب محبته		
ف١ وجوب محبته	√	
ف٢ حكم الصلاة عليه	√	
ف٣ محبة آله وصحبه	√	
المقصد الثامن: طبه..		
ف١ الطب النبوي		√
ف٢ في الرؤيا وتعبيرها	√	
ف٣ إخباره بالمغيبات	√	
المقصد التاسع: عباداته وأذكاره		√
المقصد العاشر: وفاته ورثاؤه وزيارة قبره	زيارة قبره	

هذا ولم تتوقف عملية الكتابة في السّيرة، وقد ظهر في الآونة الأخيرة عدد كبير من الكتب في هذا الموضوع، وتنوعت العناوين بتنوع المقاصد، ونذكر منها على سبيل المثال:

نور اليقين في سيرة سيد المرسلين تأليف الشيخ محمد الخضري.

محمد ﷺ المثل الكامل تأليف أحمد جاد المولى.

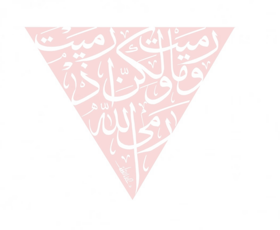
محمد ﷺ تأليف محمد رضا.

السيرة النبوية دروس وعبر تأليف الشيخ مصطفى السباعي.

مختصر سيرة ابن هشام تأليف عبد السلام هارون.

فقه السيرة تأليف الشيخ محمد الغزالي.

فقه السيرة تأليف محمد سعيد رمضان البوطي.



٣) مصادر دراسة السيرة:

يحب بعضهم أن يكثر هنا من ذكر المصادر ولكنها في خلاصتها ترجع إلى:

- القرآن الكريم: حيث سجل الكثير من أحداث السيرة، وقد قام المرحوم محمد عزة دروزة بجهد مشكور في كتابه «سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم» حيث جمع الآيات ذات العلاقة بسيرة الرسول ﷺ.. ومن المهم أن أشير إلى جهده في إعداد جدولين يتعلقان بترتيب نزول السور، أحدهما خاص بالسور المكية، والثاني يتناول السور المدنية، وهما يلقيان الضوء أمام الباحث في قضية ترتيب النزول الذي يعني بدوره ترتيب الحوادث.

هذا ولا بد لكل دارس من الرجوع إلى القرآن الكريم ذاته، يقف أمام آياته وكلماته يستجلي المعاني ويتفهم المواقف.

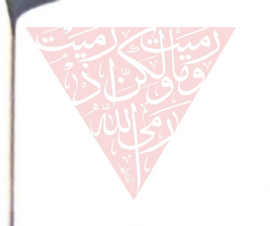
- كتب السيرة سواء أكانت كتباً مستقلة أم كانت ضمن كتب التاريخ العام.

- كتب السنة: ولا أقصد هنا الرجوع فقط إلى أبواب المغازي والجهاد والسير وإنما الرجوع إليها ككل، ذلك أن كثيراً من الأحاديث المنتشرة في الأبواب المختلفة تتناول الكثير من جوانب السيرة، من بيان صورة اقتصادية أو اجتماعية... مما يكون له كبير الأثر في الوقوف على دقائق السيرة وجزئياتها.

٤) الكتابة في السيرة:

كثيرة هي كتب السيرة التي يقرؤها الإنسان ثم لا يخرج منها بفائدة تذكر، ذلك أنها لم تعالج مشكلة ولم تعلل حدثاً.. وإنما كانت مجرد نقول..

وإزاء هذه المشكلة يحسن بنا أن نتكلم عن قضية الكتابة في السيرة



وهذا أمر يتطلب منا الحديث عن الكاتب والحديث عن الموضوع.

أ ـ شخصية الكاتب:

إن شخصية الكاتب لها دور كبير، ولا شك أنها ستظهر واضحة من خلال الكلمات، وهناك صفات ينبغي أن تتوفر في الكاتب حتى تؤدي كتابته دورها، ومن هذه الصفات:

١) الالتزام[1] بالإسلام فكراً وسلوكاً، هذا الالتزام الذي يجعل الكاتب يعايش أو يعيش الإسلام واقعاً وليس مجرد نظرية فكرية، وهذا ما يجعله أكثر قدرة على فهم أحداث السيرة وبالتالي صياغة هذا الفهم ووضعه في متناول الآخرين، وإلا ففاقد الشيء لا يعطيه.

٢) الحب والعاطفة، فالكتابة عن السيرة هي الحديث عن الرسول الكريم ﷺ الذي جعل حبه فرضاً على كل مسلم، وجمود العاطفة في هذا الميدان يلقي بظلاله على الكلمات فيفقدها تأثيرها.
والحب هنا سمة إيجابية لا تعني الخروج عن إطار النصوص الصحيحة..

٣) الاطلاع الواسع على المصادر التي أشرنا إليها وبمقدار سعة الإطلاع بمقدار ما يكون أقرب لوضوح شخصية الرسول الكريم في ذهنه الأمر الذي يجعل لدى الكاتب القدرة على تفسير وتعليل وربط الأحداث ببعضها واستكمال صورتها.

ب ـ في الموضوع:

وضوح الموضوع وتحديده منذ البدء أمر ضروري، فإن الغاية تحدد الأسلوب والطريقة، فجوانب السيرة كثيرة متعددة، وأساليب معالجة الموضوعات متعددة، وحتى يصل الكاتب إلى غايته المرجوة ينبغي أن تكون الصورة واضحة في ذهنه لما يريد حتى يستطيع نقلها، وبتعبير آخر: ينبغي أن يطرح على نفسه السؤال التالي: لماذا يكتب؟

(١) انظر تفصيل معنى الالتزام في كتاب «الفن الإسلامي التزام وإبداع» للكاتب، من منشورات دار القلم.



إن الكتاب الذي يخلو من معالجة جديدة، أو طرح للأحداث بأسلوب جديد، أو تعليل لقضايا مستغلقة، أو لفت نظر لأحداث أغفلها الكتَّاب. . إنه صورة تكرر الكتب السابقة، وحينئذٍ سوف يكون عبئًا على المكتبة، ولقد قرأت كتباً كان تعليقي في نهايتها السؤال التالي: ماذا يريد الكاتب؟

ولقد كثرت هذه الكتب في الآونة الأخيرة حتى بات القارئ في حيرة من أمره. . . ماذا يأخذ وماذا يدع، حتى لقد أصبحت القضية فيما يبدو عملاً تجارياً، وكان نصيب السيرة وتراجم الصحابة وافياً من هذه الظاهرة.

والسؤال الآخر الذي ينبغي أن تكون الإجابة عليه واضحة في ذهنه: لمن يكتب؟ ونوضح ذلك في الفقرة التالية.

نوعية الكتابة ومستواها:

جاء في مقدمة صحيح مسلم قول ابن مسعود: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

وجاء في البخاري قول علي «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله» وقد أدرجه البخاري تحت باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا. [باب ٤٩ في كتاب العلم].

والسيرة النبوية ينبغي أن تكون في متناول كل مسلم، صغيراً أو كبيراً. . ومن أجل ذلك ينبغي أن يكون الكاتب عارفاً لمن يكتب. . . حتى يراعي المستوى الذي يكتب له. وأعتقد أن هناك ثلاثة مستويات:

- للصغار، وهنا نقدم السيرة للطفل من خلال مواقف تبرز فيها جوانب البطولة (إيجابية أو سلبية) والطفل يغرم بالبطولة. فنحن نلبي شوقه من خلال واقع صحيح بعيد عن الخيال.

وأقصد بقولي إيجابية أو سلبية أن البطولة كما تكون في ميدان القتال وفي ميدان التحلي بفضائل الأخلاق، تكون أيضاً في ميدان الصبر وتحمل المشاق.

وينبغي مراعاة المستوى اللغوي الذي تصاغ به هذه المواقف، ويمكن أن



يتفنن الكاتب في مجال العرض فيجعلها أحداثاً متتابعة بحيث يمهد في ذهن الطفل للمرحلة التالية.

وليس كل إنسان أهلاً للكتابة في هذا المستوى فهو يحتاج إلى موهبة في التعامل مع الصغار ومع مستواهم الفكري، ولقد وقفت على بعض ما كتبه دكاترة من أساتذة الجامعات في هذا الميدان فكان إنتاجاً يدعو إلى التعجب!!

وفي هذا العالم الذي أصبح مليئاً بما يشغل عالم الطفل، وغالبه من صنع غير المسلمين، سواء أكان ذلك في ميدان المجلات أو الأفلام، نحن بحاجة إلى كتاب وفنانين يستطيعون إيصال أحداث السيرة بلغة جذابة مشوقة فيها كل التقدير والاحترام للرسول الكريم ﷺ، بحيث تلبي شوق الطفل إلى استماع القصة أو الحدث، بل وتضع بين يديه الكتاب الجذاب في مظهره حتى نكون مواكبين للعصر.

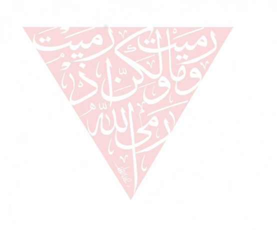
ويحسن أن تزود هذه الكتب باللوحات والرسوم التي تساعد الكلمة على النفاذ إلى مساحة أوسع من ذهن الطفل وتفكيره، وهنا يأتي دور الفنان المسلم الملتزم الذي يستطيع القيام بهذا العمل ضمن ما يسمح به الإسلام الحنيف.

ولهذا فنحن في عالم الطفل بحاجة إلى الكاتب والفنان، وإلى التعاون بينهما.

- الكتابة إلى الشباب: وهنا تقدم أحداث السيرة بعرض مشوق بشكل يراعي تتابع الحوادث مع الإشارة إلى الدروس والعبر والتأكيد على بعض المواقف وإبرازها.

- الكتابة إلى المثقفين: وتقدم السيرة هنا بحيث تؤدي إلى تصور كلي يعطي صورة متكاملة لحياته ﷺ بحيث يربط الجزئي بالكلي. وتوضح المراحل التي خطتها الدعوة في شتى جوانب الحياة، من سياسية واجتماعية واقتصادية وتربوية، وكيف تمت المواكبة بين هذه الجوانب...

- وهناك نوع من الكتابة في السيرة غايته النقد والتمحيص والتحقيق، بحيث توضع المادة الخام للسيرة - إن صح التعبير - بشكلها الصحيح بعيداً



عن الافتراءات والتشويه والوضع... وهذا النوع ينبغي ألا يكون عملاً فردياً حتى لا تطغى عليه الأهواء وإنما يكون عملاً جماعياً يشترك في صياغته مختصون.

وهذا النوع - إذا وجد - يكون المعين الذي يرجع إليه كتاب السيرة على اختلاف المستوى الذي يكتبون له.

هذا ولا يفوتني الإشارة إلى أن السيرة المكية لم تعط حقها من العناية والدرس، وهي مرحلة مهمة، كانت جهوده ﷺ متجهة فيها إلى تربية أصحابه، وإبرازها في صورتها اللائقة بها، لم أر - فيما أعلم - من أدَّاه حقه، وهي قضية تحتاج إلى جهد كبير، وأعتقد أن كتاب «في ظلال القرآن» واحد من المراجع المهمة في هذا الموضوع...

طوفان الأقصى

٣

دراسة السيرة
«ملاحظات لها الصدارة»

من المعلوم أن دراسة السيرة تكون بالرجوع إلى مصادرها التي أشرنا إليها. وهذه بدهية لا تحتاج أن نذكر بها، ولكن أحب هنا أن ألفت النظر إلى بعض الملاحظات التي تجعلنا أكثر دقة في تحري الصواب والوصول إلى الحق.

القرآن الكريم:

هذا الكتاب العظيم هو السجل الخالد لهذا الدين، ولقد تناولت آياته الكريمة ـ فيما تناولت ـ أحداث السيرة، ومن المعلوم أن نزول الآيات كان مصاحباً لأحداث السيرة منذ بدء نزول الوحي وحتى وفاة النبي ﷺ.

فلا بد لأي دارس للسيرة من الرجوع إلى الكتاب الكريم وإمعان النظر في آياته: إذ يتفرد القرآن الكريم عن المصادر الأخرى بذلك الوصف الدقيق للأحداث والشخوص فيصور لنا نبضات القلوب وأسارير الوجوه. ويصل بنا إلى معرفة ما يجول بالخاطر وما كان يراود الناس من أفكار وخواطر... وتلك لعمري خاصية تنقل القارئ إلى جو الحدث فيعيشه حركة وانفعالاً فإذا هو أمام الأحداث وجهاً لوجه..

اقرأ معي ـ إن شئت ـ هذه الآيات وهي تحدثنا عن جانب من غزوة الأحزاب:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً. إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً.

وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً. ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً﴾ الأحزاب ٩ ـ ١٤.

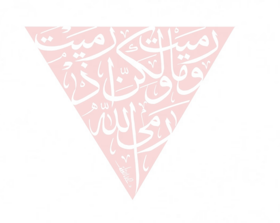
واقرأ معي هذه الآيات وهي تحذر المؤمنين من الركون إلى غيرهم:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور، إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها..﴾ آل عمران ١١٨ ـ ١٢٠.

ويوكل المشركون إلى الوليد أمر القول في القرآن ليصدروا جميعاً عن رأيه، ولنستمع إلى الآيات الكريمة وهي تسجل هذه الحادثة:

﴿ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له مالاً ممدودًا، وبنين شهوداً، ومهدت له تمهيداً، ثم يطمع أن أزيد، كلا إنه كان لآياتنا عنيداً، سأرهقه صعوداً، إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر، سأصليه سقر﴾ المدثر ١١ ـ ٢٦.

هذه المعاني الدقيقة، وهذا التصوير للانفعالات، لا نجده في غير



القرآن الكريم، وما أحوج الكاتب إلى ذلك لينتقل بقارئه إلى الجو النفسي الذي جرت فيه الوقائع والأحداث.

الصحيحان

قد أجمعت الأمة على صحة كتابي البخاري ومسلم، ولم يكن هذا الإجماع عن عبث، فما كان إلا بعد تمحيص شديد للكتابين من قبل علماء هذه الأمة تناول المتن والسند، فالصحيح لا يكون صحيحاً إلا بعد أن يسلم - سنداً ومتنًا - من النقد.

وبناء على هذا فإن ما ورد فيهما يعد في أعلى درجات الصحة، وإذا وجد ما يعارضهما من غيرهما فإنه ينظر في المعارض. . .

وللأستاذ محمد الغزالي وجهة نظر في هذا الموضوع نحب أن نقف عليها[1].

فقد تحدث في مقدمة كتابه «فقه السيرة» عن منهجه في كتابة السيرة، وذلك في صدد حديثه عن تخريج أحاديث الكتاب، فكان مما قاله:

وقد «صددت عن إثبات رواية البخاري ومسلم مثلاً للطريقة التي تمت بها غزوة بني المصطلق.

فإن رواية الصحيحين تشعر بأن رسول الله ﷺ باغت القوم وهم غارون، ما عرضت عليهم دعوة الإسلام، ولا بدا من جانبهم نكوص، ولا عرف من أحوالهم ما يقلق.

وقتال يبدؤه المسلمون على هذا النحو مستنكر في منطق الإسلام، مستبعد في سيرة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن ثم رفضت الاقتناع بأن الحرب قامت وانتهت على هذا النحو، وسكنت نفسي إلى السياق الذي رواه ابن جرير، فهو على ضعفه الذي كشفه

(١) ويشاركه بعض رأيه المرحوم محمد الصادق عرجون.



الأستاذ الشيخ ناصر الدين الألباني يتفق مع قواعد الإسلام المتيقنة، أنه لا عدوان إلا على الظالمين، أما الغارون الوادعون فإن اجتياحهم لا مساغ له.

وحديث الصحيحين في هذا لا موضع له إلا أن يكون وصفاً لمرحلة ثانية من القتال، بأن يكون أخذ القوم على غرة جاء بعدما وقعت الخصومة بينهم وبين المسلمين، وأمسى كلا الفريقين يبيت للآخر ويستعد للنيل منه. فانتهز المسلمون فرصة من عدوهم ـ والحرب خدعة ـ وأمكنهم الغلب عليهم وهم غارون، وفي هذه الحالة لا بد من التمهيد لرواية البخاري ومسلم بكلام يشبه ما نقله ابن جرير ووهنه الشيخ ناصر» اهـ.

وقد أكد اتجاهه هذا مرة أخرى بذكر الحادثة نفسها في كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث».

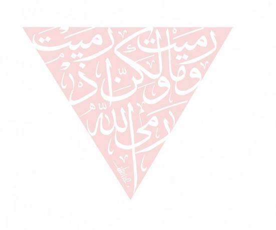
وكلام الأستاذ الغزالي ـ حفظه الله ـ كلام طيب، ووجهة نظر قد يكون لها ما يبررها.

ولكن ليأذن لي أن أقول: ليت أستاذنا ذهب إلى ما قاله في آخر كلامه من الأخذ بما ورد في الصحيحين والتمهيد له. ولو فعل ذلك لكان أحسن، فما ذهب إليه في بدء كلامه من الصدود عن الرواية المتفق عليها يشعر بعيب فيها، وهو مخالف لما ذهب إليه جمهور علماء هذه الأمة.

على أن هذه الرواية ليس فيها ما يخالف قواعد الإسلام العامة، الأمر الذي فهمه الأستاذ الغزالي، وإيضاحاً لذلك أقول:

إن الصحابة رضي الله عنهم حينما رووا الأحاديث نقل كل منهم ما شاهده، أو سمعه، وقد يكون سئل سؤالاً فأجاب عليه من خلال ما سمع أو رأى، وهذا لا يعني أن كل صحابي كان يتناول الحادثة بكاملها فيروي كل ما يتعلق بها، فقد يروي الكلمة الواحدة، أو جانباً من مشهد رآه. . .

وإزاء هذا، كان على دارس السيرة أن يبحث عن استكمال الموضوع أو الحادثة من الروايات الأخرى في الصحيحين وغيرهما بحيث يختفي الخلل والتناقض.



والأستاذ الغزالي نفسه يقول: إن الحكم الديني لا يؤخذ من حديث واحد مفصول عن غيره، وإنما يضم الحديث إلى الحديث، ثم نقارن الأحاديث المجموعة بما دل عليه القرآن الكريم[1].

ونعود إلى حادثة بني المصطلق فنقول: نحن مع الأستاذ الغزالي في أن الإسلام لا يقر المباغتة للعدو دون مُسَوِّغ، وأنه لا بد من الدعوة قبل بدء القتال. . . ولكنا لسنا معه في أن هذه الحادثة من هذا النوع.

إن نص الحديث هو: «عن ابن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال ـ أي دعوة الناس إلى الإسلام ـ قال: فكتب إلي: إنما كان ذلك في أول الإسلام، قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم وأصاب يومئذ جويرية، حدثني هذا الحديث عبدالله بن عمر» هذا لفظ مسلم[2].

وعند البخاري «عن ابن عون قال: كتبت إلى نافع فكتب إلي: إن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم وأصاب يومئذٍ جويرية، حدثني به ابن عمر وكان في ذلك الجيش»[3].

ومن مقارنة الروايتين يتبين لنا أن جملة «إنما كان ذلك في أول الإسلام» الواردة في رواية مسلم هي قول نافع وليست من قول ابن عمر، وهي اجتهاد من نافع.

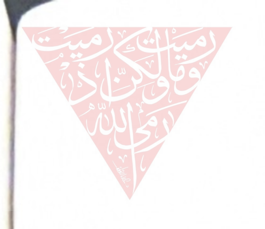
وإذن فالروايتان تقرران وقوع المباغتة دون الدعوة قبلها. .

ونذهب إلى الروايات الأخرى نريد استكمال الصورة عن الواقعة. فنجد ابن اسحاق يروي لنا سبب الغزوة بقوله: بلغ رسول الله ﷺ أن بني

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ص ١١٨.

(٢) رواه مسلم برقم ١٧٣٠.

(٣) رواه البخاري برقم ٢٥٤١.



المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار[1].

ونجد عند ابن سعد: أن الرسول ﷺ لما بلغه ذلك بعث بريدة بن الحصيب الأسلمي يعلم علم ذلك، فاستأذنه أن يقول فأذن، فأتاهم ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه، فوجدهم قد جمعوا الجموع، قالوا: من الرجل؟ قال: منكم. قد بلغني من جمعكم لهذا الرجل، فأسير في قومي ومن أطاعني فنكون يداً واحدة حتى نستأصله.

قال الحارث: فنحن على ذلك فعجل علينا.

فقال بريدة: أركب الآن وآتيكم بجمع كثير من قومي.

فسروا بذلك ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم، فندب الناس وخرج مسرعاً[2].

إن روايتي ابن إسحاق وابن سعد تؤكدان أن بني المصطلق كانوا قد أعدوا العدة للعدوان عليه ﷺ، وهذا إعلان للحرب من طرفهم، وإذن فالمباغتة كانت رداً للعدوان.

إن إعلان الحرب من قبل طرف ما يعني بدء المعركة، وعند اندلاع المعركة لا حاجة لعرض الإسلام، وإنما يكون العرض قبل ذلك، كما يكون أيضاً عندما يبدأ المسلمون عملية القتال، أما في الحال التي يعتدى عليهم فيها فلا حاجة لذلك.

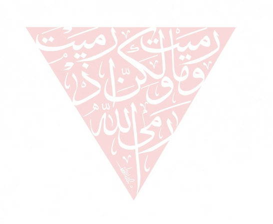
وما مثل بني المصطلق إلا مثل الأحزاب، والفارق أنه ﷺ استطاع أخذ زمام المبادرة قبل وصول بني المصطلق إلى المدينة، فهل كان يوم الأحزاب بحاجة إلى دعوة القوم وقد جاؤوا للقضاء عليه؟!

أخلص مما سبق إلى أن الصحيحين مصدران للسيرة يؤخذ كل ما فيهما ويعتمد، وحينما يندُّ نص عن الفهم فالتريث والتؤدة فيهما الخير، فما يستغلق

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٩٠.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/٦٣ وشرح الزرقاني ٢/٩٦.



على الفهم في وقت قد ييسره الله تعالى في وقت آخر، وما يعسر فهمه على إنسان قد يفهمه آخر.

المعجزات:

ذهبت بعض كتب السيرة تركز اهتماماً خاصاً على المعجزات. وقد دفع هذا الاهتمام بعضهم إلى قبول كل خبر في هذا الصدد مهما كانت درجته من الضعف. بل وجدنا بعضهم يقعد قاعدة لهذا الأمر فيقول: «ما خص نبي بشيء من المعجزات والكرامات إلا ولنبينا مثله كما نصوا عليه»[١].

وفي سبيل البرهنة على هذه «المسلَّمة» ذهبوا يفتشون عن معجزة للنبي ﷺ إزاء كل معجزة لنبي سابق. ومن أجل ذلك حشرت الأحاديث الضعيفة بل والموضوعة إلى جانب الصحيح.

وأصبح قبول الضعيف في هذا الباب أمراً مقبولاً، حتى قال شيخ الإسلام الصابوني المتوفى سنة سبع وأربعين وأربعمائة في صدد تعليقه على حديث في المعجزات: «هذا حديث غريب الإسناد والمتن وهو في المعجزات حسن» ثم وافقه الزرقاني شارح المواهب على ذلك[٢].

وقد بينت بالتفصيل مكانة المعجزات في هذا الدين في كتاب «من معين السيرة»، وأن هذا الدين لم يقم عليها وإنما كانت من باب التكريم للنبي صلّى الله عليه وسلّم.

ومن المعلوم أن الإيمان بمعجزات الأنبياء جزء من إيمان المسلم، فهي ذات ارتباط وثيق بالرسل عليهم السلام، ومنهم النبي محمد ﷺ، ولكن ليس من هذا الإيمان تصديق الأكاذيب والأوهام.

والمعجزات أمور خارجة عن سنن الأشياء وطبائعها وخصائصها، وهي بالتالي غير خاضعة لميزان العقل. ولما كانت كذلك وجدت الأحاديث الضعيفة

(١) المواهب اللدنية للقسطلاني ١/٣٩٧

(٢) شرح المواهب اللدنية للزرقاني ١/١٤٧.

والموضوعة سبيلها إلى هذا الميدان بعيداً عن رقابة العقل.

وكثيراً ما يتساءل الإنسان كيف قبل بعض المصنفين أن يدوّنوا في مصنفاتهم هذه الأحاديث إن لم يكن قصدهم بيان حالها؟

نقل القسطلاني عن «الشفاء» أنه ﷺ - حينما خرج مهاجراً - ناداه ثبير: اهبط عني فإني أخاف أن تقتل على ظهري فأعذب، فناداه حراء: إلي يا رسول الله. قال الشارح الزرقاني: قال السهيلي: وأحسب في الحديث أن ثوراً ناداه أيضاً لما قال له ثبير اهبط عني[1].

وهكذا تساهل القاضي عياض فنقل الحادثة بدون سند وبلفظ «روي»[2]، ثم جاء السهيلي فوجد من المناسب تكميل الحادثة بذكر جبل ثور. وهكذا وصل الأمر إلى إدخال عامل الظن والتخمين.

وأظن أن الذي دعا هؤلاء الأعلام - رحمهم الله - إلى التساهل في هذا الأمر هو ما ذكرته من محاولة إيجاد معجزة له ﷺ تجاه كل معجزة لنبي سابق.

والذي أحب أن أذكر به في هذا الجانب من البحث:

١) أن مقياس صحة الحديث في باب المعجزات يعود بالدرجة الرئيسة إلى صحة السند، إذ لا مجال لنقد المتن طالما أنه غير خاضع للعقل[3].

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب ٣٣١/١

(٢) الشفاء للقاضي عياض ٥٩١/١

(٣) مما يؤيد عدم خضوع موضوع المعجزة للعقل حديث أبي هريرة عند البخاري برقم ٣٦٦٣ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينما راع في غنمه، عدا عليه الذئب فأخذ منها شاة، فطلبه الراعي، فالتفت إليه الذئب فقال: من لها يوم السبع يوم ليس لها راع غيري، وبينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت إليه فكلمته فقالت: إني لم أخلق لهذا ولكني خلقت للحرث.

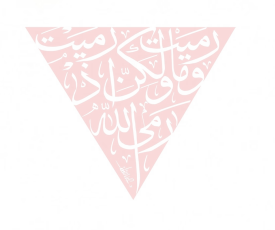
فقال الناس: سبحان الله؟!

قال النبي ﷺ: فإني أومن بذلك وأبو بكر وعمر بن الخطاب».

وفي رواية عند البخاري أيضاً برقم ٣٦٩٠ «وما ثم أبو بكر وعمر».

وهذه الحادثة كانت في بني إسرائيل - كما قال ابن حجر - حيث أوردها في ذكر بني إسرائيل.

ومحل الشاهد: أن الناس لما تعجبوا أوضح لهم ﷺ أن هذه القضايا إيمانية تعتمد على صحة السند، ولذا أكد أن أبا بكر وعمر يؤمنان بذلك، لصحة سندها بقول الرسول ﷺ، فلا =



٢) وأنه لا بد في باب المعجزات من الحديث الموثوق بصحته، لأن أمر المعجزات مرتبط بالعقيدة، وما كان كذلك فلا يقبل بشأنه إلا الحديث الصحيح[١]، إذ من المتفق عليه بين العلماء أن الحديث الضعيف لا يقبل في باب العقائد[٢].

وفي ضوء ما ذكرنا يتبين دارس السيرة كيف ينبغي أن يكون موقفه تجاه هذه القضية التي كثرت فيها الأخطاء بسبب ذلك التساهل.

مع الروايات:

كثيراً ما يجد الإنسان نفسه في دراسة السيرة أمام أكثر من رواية في الحادثة الواحدة، فما العمل؟

هناك أكثر من حالة نشير إلى أكثرها أهمية باختصار شديد:

١) تستبعد كل رواية تعارض أصول الإسلام العامة، ومن أمثلة ذلك قصة الغرانيق التي سوف نتحدث عنها.
ومن المعلوم أن ليس في الصحيحين شيء من ذلك.

٢) في حال التعارض بين مضمون الروايتين بحيث لا يمكن الجمع بينهما تثبت الرواية الأقوى سنداً وتُسقط الأخرى، ومن أمثلة ذلك:

قصة هجرة عمر رضي الله عنه[٣]:

= يبحث عنها هل يدركها العقل أم لا، ولذا كما في رواية ابن حبان «فقال الناس: آمنا بما آمن به رسول الله ﷺ» [فتح الباري ٧/٢٨].

وهذه القضية وإن لم تكن معجزة اصطلاحاً ولكنها أمر خارق للعادة وهي بهذا كالمعجزة.

(١) قال القرطبي ـ وهو يتحدث عن قضية رؤية النبي ﷺ لربه تعالى يوم الإسراء ـ: وليست المسألة من العمليات فيكتفى فيها بالأدلة الظنية، وإنما هي من المعتقدات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي [فتح الباري ٨/٦٠٨] وهكذا فأمر العقيدة يحتاج إلى دليل قطعي.

(٢) انظر «الحديث النبوي» للدكتور محمد الصباغ ط ٤ ص ٢٦٩. من منشورات المكتب الإسلامي.

(٣) ومن أمثلة ذلك الخلاف في عدد المسلمين يوم الخندق ففي البخاري: ألف. وعند ابن إسحاق: ثلاثة آلاف. والصحيح هو ما في البخاري،ولولا الإطالة لذكرت تفصيل ذلك.



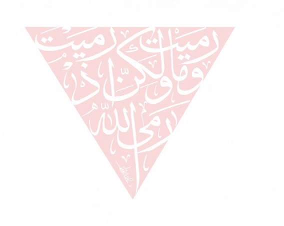
فقد جاء في سيرة ابن هشام: قال ابن إسحاق: ثم خرج عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة المخزومي، حتى قدما المدينة. فحدثني نافع مولى عبدالله بن عمر عن عبدالله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب؛ قال: اتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاصي ابن وائل السهمي التناضب من أضاءة بني غفار فوق سَرِف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب وحبس عنا هشام وفتن فافتتن.

وهناك رواية أخرى نقلها الزرقاني في شرحه على المواهب (١/٣١٩) قال: وأخرج ابن عساكر وابن السمان في الموافقة عن علي قال: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب فإنه لما همَّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وأنفض بدنه ـ أي أخرج أسهماً من كنانته وجعلها في يده معدة للرمي بها ـ واختصر عنزته ـ أي حملها مضمومة إلى خاصرته ـ ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها. فطاف بالبيت سبعاً ثم أتى المقام فصلى ركعتين ثم وقف على الحلق واحدة واحدة فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه، أو يؤتم ولده، أو ترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي. فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم ما أرشدهم إليه ثم مضى لوجهه.

ونقطة التعارض أن الرواية الأولى تذهب إلى أن هجرته كانت سراً كغيره من الناس كما هو واضح من قوله: أينا لم يصبح عندها فقد حبس. إذن كان كل واحد منهم على انفراد يتخذ من الوسائل ما يحاذر فيه الوقوع في الحبس. وهذا معارض لما ورد في الرواية الثانية من إعلان هجرته على رؤوس الأشهاد. ولا يمكن الجمع بينهما دون تمحل.

ورجعنا إلى تخريج كل من الروايتين:

فوجدنا رواية ابن إسحاق صحيحة لأنه صرح بالسماع من نافع وهذا



سند عال كما هو معروف وقد نص على ذلك الدكتور همام سعيد[1].

وبين الشيخ ناصر الدين الألباني عدم صحة الرواية الثانية وأن فيها ثلاثة رواة في عداد المجهولين[2].

هذا من حيث السند.

ومما يؤيد صحة رواية ابن إسحاق وسقوط الرواية الأخرى تصور الجو العام في مكة حين الهجرة وحنق قريش وغضبها مما لا يسمح بمثل هذا المسلك من عمر. ويؤيد ذلك مسلك عمر نفسه في مواقف أخرى منها: يوم الحديبية، حين دعاه ﷺ ليبعثه إلى مكة فيبلغ أشرافها ما جاء له فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، ولكني أدلك على عثمان..

كان عمر رضي الله عنه بطلاً شجاعاً ولكن الشجاعة ليست التهور وإنما هي في تقدير الأمور حق قدرها.

ومما يدل على سقوط الرواية الثانية ما جاء في آخرها «فما تبعه إلا قوم من المستضعفين علمهم ما أرشدهم إليه...» فهل كانوا بحاجة إلى إرشاده ورسول الله ﷺ ما زال بينهم؟.

نستطيع القول بعد هذا إن رواية ابن عساكر ساقطة لا ينبغي روايتها.

٣) ذاك في حال التعارض أما عند عدم التعارض وإمكان الجمع بين الروايات فذلك ما ينبغي الذهاب إليه.

ومن أمثلة ذلك: وجود أكثر من رواية في قصة إسلام عمر، وقد وضحت في «من معين السيرة» أن إحدى الروايتين كانت تمهيداً للأخرى.

ومن ذلك ما ذكر البخاري: أن عمر بن الخطاب قدم في عشرين راكباً

---

(١) انظر سيرة ابن هشام. خرج أحاديثها الدكتور همام سعيد وزميله ط مكتبة المنار الأردن.

(٢) انظر (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة) في تخريج أحاديث فقه السيرة للبوطي ص ٤٢.

من أصحاب النبي ﷺ إلى المدينة في هجرته[1]، وهذا لا يتناقض مع رواية ابن إسحاق السابقة فتلك تتعلق بالخروج وهذه تتعلق بالقدوم مما يوحي بأن مواعيد أخرى كانت بينه وبين المسلمين الآخرين من اللقاء في الطريق.

٤) ومن المفيد أن نشير إلى جانب إيجابي مهم يؤديه تعدد الروايات، ففي كثير من الأحيان تبين لنا الرواية الثانية أمراً غامضاً في الرواية الأولى أو تظهر لنا حلقة مفقودة ضرورية لاستكمال صورة الحادثة، أو تظهر لنا اسماً كان مبهماً، أو تفسيراً لتصرف أو بيان سبب لموقف، كما أنها تكون تأكيداً.. أو نقداً وتضعيفاً، وفي كل الأمور فهي تساعدنا في الوصول إلى الصواب.

في مجال النقد والمناقشة:

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن قضية إعادة كتابة التاريخ، ووصلت أصداء هذا الحديث إلى السيرة.

وبغض النظر عن وجود النية الطيبة في هذه القضية فإن أمر السيرة يختلف عن التاريخ اختلافاً جوهرياً... إذ السيرة - كما أشرت قبل ذلك - جزء من السنة التي ظهرت قواعد الضبط فيها مع أول يوم من تسجيلها، ووجود القواعد يعني وجود النقد والمناقشة.

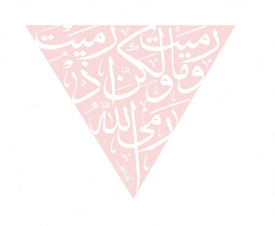
والنقد هنا يتناول أمرين:

- ثبوت النص والتثبت من صحته أو درجته بشكل عام. وهذا الأمر يشكل المادة الأولية في عملية النقد.
- مدى ملاءمة النص وصلاحيته وتناسبه مع النصوص الأخرى، وهذه عملية فكرية تعتمد على المحاكمة العقلية من جانب وعلى سعة اطلاع الناقد من جانب آخر.

وهذان الأمران متوفران في كتب السيرة منذ بدئ بكتابتها وتدوينها، فما

---

(١) رقم الحديث ٣٩٢٥.



تخريج الروايات والحكم عليها بالصحة أو البطلان ـ سنداً أو متناً ـ إلا الجانب الأساسي من عملية النقد التي أشرنا إليها. ثم لا بد لكل كاتب في السيرة من أن يواجه موقفاً ما يضطره إلى الترجيح أو التقديم أو الإبطال حينما يقف أمام الروايات المتعددة ـ كما بينا ذلك قبل قليل ـ وهذا هو الجانب الثاني المكمل في عملية النقد المشار إليها. .

ويظهر الأمر الأول ـ الحكم على النص ـ واضحاً جلياً في كل الكتب التي قام مؤلفون آخرون غير واضعيها بتخريج أحاديثها وبيان مكانتها من الصحة. ومن الأعمال التي ظهرت حديثاً من هذا النوع:

- تخريج أحاديث كتاب «فقه السيرة» للأستاذ الغزالي، الذي قام به الشيخ ناصر الدين الألباني.
- تخريج أحاديث كتاب «فقه السيرة» للأستاذ البوطي، وقام به أيضاً الشيخ ناصر الدين الألباني[1].
- تخريج أحاديث سيرة ابن هشام وقد قام به الدكتور همام سعيد ومحمد أبو صعيليك في طبعة صدرت عن مكتبة المنار بالأردن عام ١٤٠٩ هـ. وقد بلغ عدد الأحاديث المخرجة ما يزيد على سبعمائة حديث كما ورد في المقدمة ولا شك أن هذا العمل جهد طيب يستحق التقدير.

ويظهر الأمران معاً في كثير من الكتب وخاصة الكبير منها، حيث يذكر المؤلف الروايات ويقارن بينها ويرجح ويبين أسباب الترجيح. . وهذا ما نلاحظه في الكتب التالية على سبيل المثال:

- البداية والنهاية لابن كثير.
- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني.
- فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

---

(١) صدر هذا التحقيق في رسالة بعنوان «دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على الدكتور البوطي في كتابه فقه السيرة، وحقق فيه المؤلف أحد عشر حديثاً. ومن الواضح أن هذه الرسالة لم يكن هدفها التحقيق وإنما الرد.



وإذن فقضية النقد والتحقيق وتحري الدقة ليس أمراً جديداً بالنسبة للسيرة، ومع ذلك أشير إلى كتابين ظهرا حديثاً في هذا الباب:

١) كتاب «منهج كتابة التاريخ الإسلامي» تأليف محمد بن صامل السلمي طبعته دار طيبة في الرياض وصدرت طبعته الأولى عام ١٤٠٦ هـ.

وأصل الكتاب رسالة قدمت لنيل الماجستير.

والكتاب دراسة طيبة في منهج التحقيق. وقد قسمه مؤلفه إلى قسمين تناول في الأول منهما الشروط الموضوعية والقواعد المنهجية والتصورات العقدية التي تحكم التاريخ الإسلامي، وبيان المنهج العلمي في النقد والتحقيق. وتناول القسم الثاني عرض التطور التاريخي ومناهج المؤرخين المسلمين في القرون الثلاثة الأولى.

والكتاب ليس كتاب نقد في السيرة ولكنه يتعرض لها باعتبارها جزءاً من التاريخ الإسلامي وبداية له.

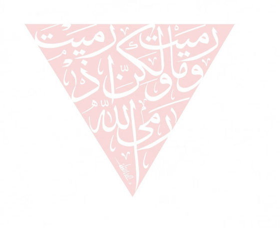
٢) كتاب «محمد رسول الله ﷺ» وكتب تحتها: منهج ورسالة، بحث وتحقيق. وكتب في أعلى الغلاف «مفتاح تحقيق التاريخ الإسلامي» مؤلفه المرحوم محمد الصادق إبراهيم عرجون. الذي كان عميداً لكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وقد نشرته دار القلم بدمشق عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

وأحب أن نقف يسيراً مع هذا الكتاب باعتباره وضع ليكون دليلاً لتحقيق التاريخ الإسلامي، وكانت السيرة تطبيقاً لهذا التحقيق.

يقع الكتاب في أربعة مجلدات تزيد صفحاتها على /٢٦٠٠/ صفحة.

ويوضح المؤلف هدفه بأنه يريد «أن يستخلص نور السيرة النبوية من ركام سحب الظلام الذي نسجت برده الروايات العاطفية والنقول التقليدية التي لا تقف أمام الحقائق بميزان العقل وتحقيق البحث» ١/٧.

والكتاب ظاهرة طيبة، فهي جديدة في شكلها، وإن لم تكن جديدة في موضوعها، فتحقيق الروايات واستخلاص وجه الصواب منها عمل لا يكاد



يخلو منه جهد كاتب من كتاب السيرة كما ذكرت، لأن هذا الموضوع يفرض نفسه على الكاتب فرضاً، والشيء الذي أراده الكتاب هو استيعاب أحداث السيرة من أولها إلى آخرها، وقد فعل تقريباً، وتوقف عند آخر بحث الوفود، حيث توفي رحمه الله تعالى قبل أن يتم الكتاب.

والمصنف ـ رحمه الله ـ مر على أحداث السيرة ولكن الأمور التي استوقفته للبحث لم تكن كبيرة العدد، ولعله أرادها نماذج للبحث ولم يرد الاستقصاء، وقد تبين لي أن المسائل التي خضعت للمناقشة هي:

- بيان أن ميلاده ﷺ كان ميلاداً عادياً.
- بيان أن المعجزات كانت لتكريمه ﷺ.
- بيان أن الذي زوج خديجة هو عمها عمرو بن أسد.
- مناقشة فقرة «لقد خشيت على نفسي» في حديث بدء الوحي.
- مناقشة قضية فترة الوحي.
- مناقشة حديث «اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين».
- الإشارة إلى قضية المسلمين الأوائل ٢/ ٥ و٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٦
- مناقشة قصة الغرانيق.
- مناقشة قضية مؤاخاة المهاجرين بعضهم مع بعض.
- مناقشة قضية النسخ في القرآن.
- مناقشة قضية بني المصطلق التي تحدثنا عنها عند مناقشة الأستاذ الغزالي.
- بيان أن (لن نغلب اليوم من قلة) ليست من كلام النبي ﷺ ولا أبي بكر رضي الله عنه.

والكتاب جهد ضخم أثاب الله مؤلفه وأحسن الجزاء له.

وبما أنه أول كتاب في بابه فيحسن بنا أن نذكر ببعض الملاحظات التي قد تفيد من له رغبة في معالجة مثل هذا الموضوع.

١) إن ضخامة الكتاب ليست ناتجة عن طبيعة الموضوع وقد تبين لنا



أن المسائل التي وضعت تحت المناقشة لم تكن كبيرة العدد. وأستطيع إرجاع سبب ذلك إلى أن الكتاب لم يقتصر على قضية التحقيق، بل كان كتاب سيرة يسرد الأحداث بإسهاب، كما أنه كتاب فقه للسيرة إذ تطول الوقفات فيه تعليقاً على بعض الأحداث.

وسبب آخر: هو الإطالة جداً حيث يمكن الاختصار، فمناقشة قصة الغرانيق استغرقت الصفحات ٣٠ ـ ١٥٥ من الجزء الثاني، ومناقشة قضية النسخ في القرآن استغرقت الصفحات ٦٥ ـ ١٣٢.

٢) محاولة الحط بشكل غير مباشر ـ أو هكذا يخيل للقارئ ـ من قيمة ومكانة علماء هذه الأمة وأعلامها والإلحاح على هذه القضية كثيراً، ويسميهم أصحاب الهالات المشهرة. . . ومن ذلك:

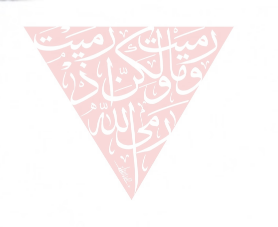
أنه عرّض بصحيح البخاري في صدد حديثه عن قضية فترة الوحي، وهو ما سوف نتحدث عنه في مناقشة هذه القضية.

وقال عن ابن حجر: أما الحافظ ابن حجر فكان موقفه من قصة الغرانيق ممثلاً لشخصيته العلمية التي يضفي عليها فوقه [كذا] في الصناعة الحديثية هالة من الاقتدار والتفرد على حفاظ عصره، مما غلب عليه العصبية الصناعية فحكمها في أصل إثبات القصة. . . وهذه كبوة لا ندري ما الله صانع به من أجلها ولعله تذكر وأناب ٢/٣٤.

وموقف ابن حجر ـ هنا ـ هو موقف العالم المدقق الذي يحكم القواعد المتبعة والمعترف بها. ومع هذا فإن كان أخطأ فله أجر، ذلك أنا لا نضعه في موقع الاتهام بشأن نيته. . . كما سوف نبين ذلك.

٣) لم يخلُ الكتاب من ذكر روايات ضعيفة أو لم تثبت، ومن ذلك: ذكره روايتي هجرة عمر رضي الله عنه بجانب بعضهما دون بيان الصواب منهما.

ومن ذلك ما ذكره عن وأد عمر لابنته في الجاهلية وهي قضية لم تثبت ١/٦٤٢.



٤) إن قضية النسخ التي ناقشها في صفحات كثيرة هي قضية تتعلق بعلم أصول الفقه وليست مسألة من مسائل السيرة.

تلك بعض الملاحظات عن كتاب المرحوم عرجون، وهي ملاحظات يسيرة إذا قيست بالجهد الذي بذله المؤلف رحمه الله تعالى.

اقتراح بصدد كتب النقد:

قلت: إن كتب النقد في هذا الموضوع إنما توضع لفئة محدودة من الناس، وهم الباحثون والمختصون ولذلك يحسن بها أن تكون كتباً موضوعية يقل فيها الحشو والتطويل. كما ينبغي تحديد المشكلة المطروحة للمناقشة وبيان نقاطها إن كانت متعددة، وأن تكون اللغة المستعملة هي ما تعارفه أسلافنا من النقد النزيه الذي تكون الحجة فيه صاحبة الكلمة مع كل التقدير والاحترام للطرف الآخر طالما أنه لم يكن سيء النية يريد إثبات باطل أو إبطال حق.



لَا غَالِبَ إِلَّا اللهُ



القِسْمُ الثّاني

نماذج مِنْ دراسة السِّيرة




طوفان الأقصى



في هذا القسم سنقف على نماذج من الدراسة تم اختيارها ليكون كل واحد منها مثالاً للمعالجة في جانب من جوانب البحث في السيرة.

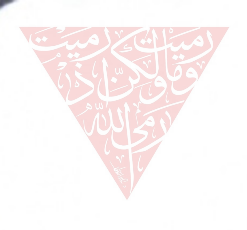
ففي الموضوع الأول «فترة الوحي» نناقش خطأ وقع في نقد الحادثة.

وفي الموضوع الثاني «السابقون الأولون» نبين خطأ مفهوم وقع بناء على استنتاج خاطئ.

وفي الموضوع الثالث «الهجرة إلى الحبشة» محاولة لتحقيق البحث في هذا الموضوع وبيان المعالم الرئيسة فيه، وبيان وجه الصواب فيما اختلف فيه.

وفي الموضوع الرابع «قصة الغرانيق» سنكون أمام معالجة كاملة لموضوع مهم اقتصر فيه النقاد على المناقشة من زاوية واحدة فلم يصلوا إلى الغاية المرجوة.

وفي الموضوع الخامس «غدير خم» نلفت النظر إلى حادثة أغفلها كتاب السيرة المتأخرون مع أهميتها البالغة بسبب ما ترتب عليها من أحداث في التاريخ الإسلامي.



لا غالب إلا الله



١

قضية «فترة الوحي»

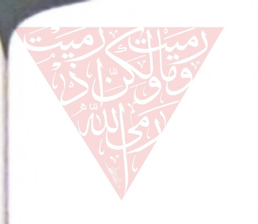
هذه القضية لم تكن مشكلة من مشاكل دراسة السيرة ولم أر من توقف عندها.

وأعتقد أن أول من طرحها كمشكلة كبيرة على بساط البحث هو المرحوم محمد الصادق إبراهيم عرجون، حيث ناقشها في الجزء الأول من كتابه في الصفحات ٣٨٥ ـ ٤٥٨ وقال: لم نعلم أن أحداً من علماء الأمة وأعلامها على مدى القرون المتطاولة منذ جمع البخاري صحيحه رفع رأسه بإنكارها أو أجرى قلمه بإبطالها. أو أطلق لسانه بتزييفها وهي من أنكر المنكر... (ص ٣٨٥).

وتبدأ القضية مما جاء في صحيح البخاري...

جاء في حديث عائشة عن بدء الوحي، حدثنا معمر قال الزهري فأخبرني عروة عن عائشة.. وفي آخره:

فقال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي. وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ ـ فيما بلغنا ـ حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال. فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا



لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك. [رقم الحديث ٦٩٨٢ فتح الباري ١٢/٣٥٢].

وذكر فترة الوحي وردت في حديث البخاري رقم ٣ و٤ وذكرها مسلم في حديثه رقم ٢٥٥ من كتاب الإيمان وكذلك ٢٥٦ وكذا عند أحمد ٣/٣٢٥ و٣٧٧ وكذا ٦/٢٣٣.

ومحل الإشكال هو رواية البخاري التي ذكرنا نصها آنفاً، وقد وردت أيضاً في مسند أحمد ٦/٢٣٣ ويتمثل هذا الإشكال بمحاولة الرسول ﷺ إلقاء نفسه من شواهق الجبال... فهي محاولة انتحار... والانتحار كبيرة...

وقبل مناقشة المشكلة أحاول تلخيص رأي المرحوم عرجون.

على الرغم من قراءتي لهذا البحث في كتاب المرحوم عرجون أكثر من مرة متلمساً تحديد وجه النقد لهذه القضية لم أجد سوى قوله:

«تلك هي الأبطولة التي تنسب إلى رسول الله ﷺ محاولة قتل نفسه في مدة فترة الوحي» ص ٣٨٥.

ثم هناك كلام عام موزع خلال تلك الصفحات المتتابعة خلاصته أن هذه المحاولة مما يخدش عصمته.

وفي صدد ذلك تعرض لصحيح البخاري فقال: «وهي أبطولة هزيلة منكرة ألصقت إلصاقاً بأعظم وأجل كتب الحديث ودواوين السنة المطهرة - ذلك الفحل، لا يقدع أنفه[1]، صحيح البخاري - وسارت بسيرورته إلى عقول المسلمين وشهرت بشهرته فيهم».

«هذه الأبطولة ونظائرها مما يجب التوقف في قبولها، بل مما يجب رفضها وإبطالها، وإن تكن قد ألصقت بحديث ارتفع بصحة سنده ومكانة راويه ومخرجه عن مثارات الضعف الحديثي والوهن في الرواية» ٣٨٥

---

(١) قدع الفحل: ضرب أنفه بشيء ليرتد.



«لست أدري كيف أدخل إمام الدنيا في علم الحديث وفقهه، وتعمق أسراره الإمام محمد بن إسماعيل البخاري هذا البلاغ المعمري الزهري في جامعه، أصح جوامع الحديث وأقوم دواوين السنة» ص ٤١٤ ـ ٤١٥

وقال: «ولم يروه غير البخاري من الأئمة الثقات وجهابذة المحدثين» ص ٤٥٥

* * *

ونناقش موقف المحقق أولاً ثم ننتقل إلى مناقشة القضية ذاتها.

يلاحظ من أقوال المحقق أنه يعرض بالبخاري لروايته هذا البلاغ، ويعتبره مسؤولاً عن انتشار هذه الأقصوصة الزائفة المضلة كما يقول.. وهذا التعريض وإن كان محاطاً بالمدح والإجلال ففيه ما فيه... وقد قدم لهذا التعريض في أكثر من مكان وبشكل عام، ومنها ما جاء في ص ٣٠٥/١ تحت عنوان «التحذير من الانزلاق في قبول أغلاط الأكابر».

ومن المسلَّم به أن العصمة لا تكون إلا للأنبياء، ولكني أقول: ليس من مصلحة المسلمين في شيء أن نفتح باب الجرأة على هذا الكتاب الذي أجمع عليه المسلمون أنه الكتاب الأول في السنة.. لأن فتح الباب يسهل لكل الحاقدين على الإسلام أن يدخلوا منه... وفي هذا من البلاء ما فيه..

ثم الجرأة على أكابر العلماء في هذه الأمة... ليس من السنة التي جرى عليها المسلمون عبر عصورهم... قد يكون هناك اختلاف في وجهات النظر مع كل التقدير والاحترام... أما أن تستعمل فيه ألفاظ نابية... فذلك شيء لم يحدث إلا من أفراد... والخط العام يقوم على النقد الذي فيه الاحترام والتقدير للآخرين... لأن سوء النية غير موجود أصلاً..

على أن ما ذهب إليه المحقق يحتاج إلى إمعان النظر:

١ ـ قد روى هذا البلاغ الإمام أحمد في مسنده كما أشرت لذلك. ولم ينفرد به البخاري كما ذهب إليه المحقق.

٢ ـ إن النص واضح تمام الوضوح أنه بلاغ وإذن فأين ما يلام به البخاري؟! ومن المعلوم أن البخاري يحتوي على الأحاديث المسندة والأحاديث المعلقة(١) ثم المعلق قد يكون من المرفوعات وقد يكون من الموقوفات. . .

والمتفق على صحته هو الأحاديث المسندة، وأما المعلقة ففيها تفصيل ذكره ابن حجر في مقدمة فتح الباري. . . وإذن فكونه بلاغاً يدخل في هذا القسم. . . وقد قال ابن حجر في شرح الحديث: وهو من بلاغات الزهري وليس موصولاً (١٢/٣٥٩).

وقد قال المحقق: إن القاضي عياضاً قد ضعف هذا البلاغ بأن صاحبه معمراً أو الزهري لم يسنده. . وهو مطعن من جهة السند. .

وإذن فالقضية متكلم بها وهي معروفة ولكن الموقف منها مختلف.

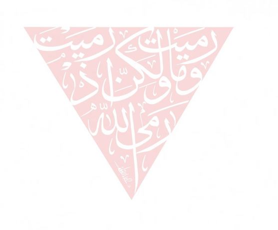
ولم يلم أحد من العلماء البخاري في تسجيل الأحاديث المعلقة في كتابه. . فما بال المحقق رحمه الله يأخذ موقفاً مغايراً للأعلام من هذه الأمة. .

٣ ـ إن ابن حجر ناقش جميع الأحاديث التي انتقد فيها البخاري لأنها ليست في مستوى الشروط التي وضعها لنفسه. . وليس هذا الحديث واحداً منها لأنه «بلاغ» وليس من المسند.

وإذن فهناك فرق بين الحديث المسند وغيره على تفصيل كبير وضحه ابن حجر. . ولا يلام البخاري على تخريج هذه الرواية، وكان بإمكان المحقق ـ رحمه الله ـ أن يقلد القاضي عياضاً في مذهبه بتضعيف هذا البلاغ دون ضجيج كبير، واستعمال ألفاظ غير مناسبة فيها الطعن الكبير على أعظم كتاب في السنة: انظر إلى قوله: (ألصقت إلصاقاً بأعظم وأجل كتب الحديث) ونتساءل: كيف حدث هذا الإلصاق في غفلة من الإمام البخاري أم بعده؟!

كان لا بد من الوقوف هذه الوقفة لبيان خطأ هذا الاتجاه في النقد فهو

(١) المراد بالمعلق ما حذف من مبتدأ إسناده واحد فأكثر ولو إلى آخر الإسناد [مقدمة الفتح ص ١٧] وبموجب هذا التعريف يكون البلاغ الذي نتحدث عنه نوعاً من المعلق. ومن المعروف أن البلاغ من أقسام الضعيف كما هو معروف [انظر شرح الزرقاني على المواهب ٧/٣٥٩].



اتجاه خطير، قد يؤدي كما ذكرت إلى التجرؤ على الصحيحين.

نخلص من مناقشة الأمر الأول في هذه القضيـة، وهو موقف المحقق منها، إلى أنه ليس هناك ما ينتقد على البخاري في تخريج هذا الحديث.

وننتقل إلى الأمر الثاني في مناقشة المشكلة ذاتها..

من المقـرر أن الأحاديث المعلقـة في البخاري فيهـا الصحيح والحسن والضعيف، قال النووي ـ وهو يتحدث عن المعلق في صحيـح البخاري ـ: وعلى المدقق إذا رام الاستدلال به أن ينظر في رجالـه وحال سنـده ليرى صلاحيته للحجة وعدمها[1].

ولذا لا يقال عن حديث: رواه البخاري، إذا لم يسق إسناده. بل يقال: رواه البخاري معلقاً[2].

ومن ثم كان للعلماء إزاء هذا البلاغ رأيان: الأول وهو ما ذهب إليه القاضي عياض وهو تضعيفه لعدم إسناد الزهري له. والثاني وهـو ما نقله الزرقاني حيث قال: وهذا البلاغ ليس بضعيف، كما ادعى عياض، متمسكاً بأنه لم يسنده لأن عدم إسناده لا يقدح في صحته بل الغالب على الظن أنه بلغه من الثقات لأنه ثقة. ثم إن معمراً لم ينفرد به عن الزهري بل تابعه عليه يونس بن يزيـد عند الـدولابي. ورواه ابن سعـد من حـديث ابن عبـاس بنحوه[3]. [شرح الزرقاني ١/٢١٦ ـ ٢١٧].

وإذن فهناك اختلاف في وجهة النظر بشأن السند.

ونعود إلى مفهوم المتن.

من المقرر الذي لا شك فيه، وهو أمر متفق عليه: وجود فترة الوحي.

---

(١) الحديث النبوي د. محمد لطفي الصباغ ط ٥ ص ٢٩٩. المكتب الإسلامي.

(٢) دفاع عن الحديث النبوي. للشيخ ناصر الدين الألباني (وهو في مناقشة فقه السيرة للدكتور البوطي) ص ١٥.

(٣) حديث ابن عباس الذي استشهد به الزرقاني، رواه الواقدي، والواقدي ضعيف.

والنقد موجه إلى محاولة الانتحار التي قام بها النبي ﷺ فهي كبيرة من الكبائر وهي مما يخل بعصمة النبي.

ونقول في الجواب على هذا: من المعلوم.

١ ـ أن فترة الوحي حصلت في أول البعثة، ويشير إليه حديث بدء الوحي عند البخاري وأحمد والذي يقول بعد قصة الذهاب إلى ورقة بن نوفل: «ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي».

٢ ـ وأن أحكام التشريع ومعرفة ما يحل وما يحرم، وما هو ممنوع وما هو مباح لم تلق إلى الرسول ﷺ دفعة واحدة، وإنما رافقت هذه القضية نزول القرآن الكريم في مدى ثلاث وعشرين سنة.

٣ ـ وأن الرسول ﷺ ما كان يعلم إلا ما يعلمه الله إياه، وأنه ما كان يعلم الغيب، والأمثلة في حياته ﷺ كثيرة، منها:

أن ناقته ضلت في غزوة تبوك فخرج في طلبها، فقال زيد بن اللصيت: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال ﷺ: وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله..

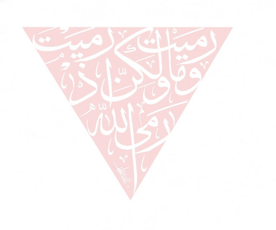
ومنها: تريثه شهراً كاملاً، وهو على أحر من الجمر، في أمر حديث الإفك وهو لا يبت بشيء حتى نزلت الآيات الكريمة ببراءة عائشة رضي الله عنها.

٤ ـ أن الرسول ﷺ قد يجتهد في الأمر فيخطئ ولكنه لا يقر على الخطأ..

كما حصل ذلك في صلاته على رأس المنافقين ثم نزل قوله تعالى: **﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾**.

وفي إعراضه عن عبدالله ابن أم مكتوم نزل قوله تعالى: **﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى..﴾**

بعد هذه المقدمات الأربع يمكننا القول بكل ثقة: إن محاولة الانتحار يومئذٍ لم تكن كبيرة ولم يكن فيها خدش في مقام الرسالة.. لأنها قضية من المسلم فيها أنه لم يكن نزل فيها تشريع..



إن قوانين الدنيا التي يصنعها الناس لأنفسهم يبدأ سريانها بعد تاريخ إعلانها ولا تكون ذات مفعول رجعي إلا إذا كانت في مصلحة الناس. فما بالنا في هذه القضية نريد أن نحاكم رسول الله ﷺ إلى تشريع لم يكن موجوداً وفي أقرب الاحتمالات كان وجوده بعد ثلاثة عشر عاماً من الحادثة[1]. . أليس هذا أمراً غريباً.

وإذا كان الرسول ﷺ لم يرتكب بعمله ذاك مخالفة شرعية، فأين الخدش الذي يصيب عصمته؟

ولهذا أعتقد أن السلف والخلف على مرور الأيام لم يروا في هذه الحادثة منقصة تمس الرسول الكريم ﷺ ولذا لم يتوقفوا عندها. . وتوقف القاضي عياض عندها إنما كان تطبيقاً لقواعد التحديث، وهي وجهة نظر تستحق الاحترام، فما وضعت هذه القواعد إلا لتكون محلاً للتطبيق. .

ولا شك أن موقف القاضي موقف قوي يمكن الأخذ به وتعتبر الحادثة في مقام الضعيف.

وأخيراً، أليس من عصمة الله تعالى لنبيه ﷺ أن عصمه من التردي فلم يحدث ذلك؟!

---

(١) سبق الشيخ ناصر الدين الألباني المرحوم عرجون إلى نقد الحادثة من خلال نقد السند ثم قال: وإذا عرفت عدم ثبوت هذه الزيادة قلنا: الحق أن نقول إنها زيادة منكرة من حيث المعنى، لأنه لا يليق بالنبي ﷺ المعصوم أن يحاول قتل نفسه بالتردي من الجبل مهما كان الدافع له على ذلك، وهو القائل (من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً). [دفاع عن الحديث النبوي والسيرة ص ٤٢].
وهكذا وقع الشيخ ناصر الدين فيما وقع فيه المرحوم عرجون في نقده للمتن.



٢

السابقون الأولون
هل كانوا خليطا من الضعفاء

هـذه القضية ليست معضلة من معضلات السيرة حتى تكون محل بحث، ولكن انتشارها ـ وهي المفهوم الخاطئ ـ حتى تجاوز الكتب المدرسية إلى الكتب التي تعد للطبقة المثقفة، جعلها محلاً للمناقشة.

وما كنت لأتوقف عندها لو ظلت في إطار الكلمة العارضة[1]، ولكني وجدت كتاب فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي يلح عليها وكأنها مسلمة من المسلمات، وكان مما قال:

«وتحدثنا السيرة أن الذين دخلوا في الإسلام في هذه المرحلة كان معظمهم خليطاً من الفقراء والضعفاء والأرقاء، فما الحكمة من ذلك؟...» ص ٧٧

ثم يقول بعد الجواب على السؤال:

«كان رصيد هذه الدعوة بعد سنوات ثلاث من بدايتها أربعين رجلاً وامرأة عامتهم من الفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء وفي مقدمتهم أخلاط من مختلف الأعاجم: صهيب الرومي وبلال الحبشي» ص ٧٩

---

(١) كما فعل مصنف «حدائق الأنوار» حين قال: «فآمن به ناس من ضعفاء الرجال والنساء والموالي» ١/٣٠١.

ولبيان الخطأ نقول: إن كتب السيرة قد قامت بإحصاء دقيق لهذه الفترة وهي محدودة بما قبل إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما. ومعظم أسماء هؤلاء الصحابة ذكرهم ابن هشام في السيرة ١/٢٥٤ ـ ٢٦١ وأضاف إليهم ابن كثير في البداية والنهاية عدداً يسيراً هم: عمرو بن عبسة السلمي وبلال ٣/٣١ والمقداد وسمية أم عمار ٣/٢٨ وأبو ذر الغفاري ٣/٣٤. وذكر بعد ذلك ابن هشام: أم عبيس وزنيرة والنهدية وبنتها ممن أعتقهم أبو بكر ١/٣١٨ ونحب أن نصنفهم بحسب قبائل لنعرف نسبة الأرقاء والأعاجم فيهم:

١) القرشيون وزوجاتهم:

من بني عبد شمس: عثمان بن عفان وامرأته[١] رقية بنت رسول الله ﷺ، وخالد بن سعيد بن العاص وامرأته أمينة بنت خلف الخزاعية. وعمرو ابن سعيد بن العاص، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة.

من بني هاشم: علي بن أبي طالب، وأخوه جعفر بن أبي طالب، وزوجة جعفر أسماء بنت عميس.

من بني المطلب: عبيدة بن الحارث.

من بني عبد الدار: مصعب بن عمير.

من بني أسد: الزبير بن العوام، وامرأته أسماء بنت أبي بكر، وخديجة بنت خويلد زوج الرسول صلى الله عليه وسلم.

من بني تيم: أبو بكر الصِّديق، وطلحة بن عبيدالله.

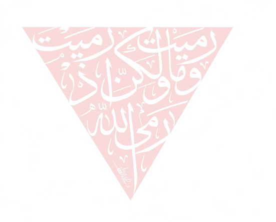
من بني عدي: سعيد بن زيد، وامرأته فاطمة بنت الخطاب (أخت عمر) ونعيم بن عبدالله (النحام).

من بني عامر: أبو سبرة بن أبي رهم، سليط بن عمرو، حاطب بن عمرو.

من بني الحارث: أبو عبيدة بن الجراح.

---

(١) ألحقت كل امرأة بزوجها بغض النظر عن قبيلتها.



من بني زهرة: عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأخوه عمير، والمطلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف.

من بني مخزوم: عياش بن أبي ربيعة وامرأته أسماء بنت سلامة التميمية، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم.

من بني سهم: خنيس بن حذافة.

من بني جمح: عثمان بن مظعون، وابنه السائب، وأخواه: قدامة وعبدالله، وحاطب بن الحارث، وامرأته فاطمة بنت المجلل الفهرية، وحطاب ابن الحارث وامرأته فكيهة بنت يسار، ومعمر بن الحارث.

٢) القبائل الأخرى:

من وائل: عامر بن ربيعة.
من هذيل: عبدالله بن مسعود.
من القارة: مسعود بن القاري.
من أسد بن خزيمة: عبدالله بن جحش، وأخوه أبو أحمد.
من زيد مناة بن تميم: واقد بن عبدالله.
من عبد مناة بن كنانة: خالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكير.
من غفار: أبو ذر جندب بن جنادة.
من بني سلمة: عمرو بن عبسة السلمي.

٣) الموالي والأرقاء:

خباب بن الأرت: وهو تميمي النسب، خزاعي بالولاء، زهري بالحلف.
زيد بن حارثة: من بني كلب.
عمار بن ياسر وأبوه ياسر وأمه سمية، وياسر قحطاني الأصل.
بلال الحبشي.
صهيب الرومي.
عامر بن فهيرة مولى أبي بكر.
أم عبيس، وزنيرة، والنهدية وبنتها.

المقداد بن عمرو، ويقال له المقداد بن الأسود، وهو من بهراء وقد تبناه الأسود بن عبد يغوث من زهرة فقيل له ابن الأسود.

وبهذا يكون عدد المسلمين:

٤٢ القرشيون من الرجال ٣٢ ومن النساء ١٠

١٢ من القبائل الأخرى

١٣ الموالي والأرقاء

٦٧ المجموع

وبهذا يتبين لنا أن مجموع من أشير إليهم بالفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر، ونسبة هذا العدد إلى العدد الكلي هي أقل من الخمس، وما كان كذلك لا يقال عنه «أكثرهم» ولا «معظمهم» ولا «عامتهم».

ولا نشك بأن المسلمين من كتاب السيرة الذين وقعوا في هذا الخطأ لم يكن الدافع إليه سوء النية، بل حسنها في إعطاء الصورة العظيمة للإسلام وهو يقوم على أكتاف الفقراء والضعفاء، أو للدفاع عن الإسلام وبيان أنه لم يقم على العصبية أو القومية[1].

أعتقد بأن البيان العددي السابق كاف لتصحيح الخطأ المذكور، ولكني أحب أن أبحث عن سبب هذا الخطأ وكيف تسرب إلى الذين أخذوا به، ففي هذا التماس العذر للواقعين فيه، وأنقل هنا بعض ما كنت قلته في «من معين السيرة».

* * *

إنه بالرجوع إلى كتب السيرة لم نجد مثل هذه التعابير التي وردت في كتاب الدكتور البوطي، فابن هشام بوَّب لهذا الموضوع بقوله «ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة»[2]، وواضح معنى قوله «ممن أسلم» فالوصف للبعض وليس للأكثر، وليس في بحثه أبداً ما يفهم منه

(١) استغل أعداء الإسلام هذا الخطأ، وعدوا انتشار الإسلام إنما كان بدافع اقتصادي.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣١٧



الفكرة السابقة التي نحن بصدد الحديث عنها، ويتحدث ابن كثير بالأسلوب نفسه الذي تحدث به ابن هشام فيقول: «فصل في مبالغتهم في الأذية لآحاد المسلمين المستضعفين» فحديثه إنما كان عن المسلمين الذين ليس لهم من يدفع عنهم[(١)].

على أننا نجد هذا التعبير قد جرى على لسان عروة بن مسعود وهو يفاوض رسول الله ﷺ في صلح الحديبية، حيث قال: يا محمد، أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها؟ وكان هذا من باب التحقير.. ولذا كان رد أبي بكر رضي الله عنه مناسباً لما قال، إذ قال له: امصص بظر اللات...[(٢)] وكلام عروة في هذا المقام غير مقبول، وهو شبيه بكلام المشركين حين وصفوا رسول الله ﷺ بما وصفوه به.

ونستطيع أن نرجع هذا الخطأ إلى سببين:

الأول: حديث أبي سفيان عن هرقل حين سأله عن أمر رسول الله ﷺ، فكان من جملة أسئلة هرقل لأبي سفيان: «فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم» ثم جاء تعليق هرقل على ذلك: «وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم، فزعمت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل»[(٣)].

إن هذا النص جعل بعضهم يعد هذا الأمر مسلّمة، ويبني عليه رأيه، كما فعل ابن الديبع الشيباني في كتابه حدائق الأنوار حيث قال: ولما بعث ﷺ أخفى أمره وجعل يدعو أهل مكة ومن أتى إليها سراً، فآمن به ناس من ضعفاء الرجال والنساء والموالي، وهم أتباع الرسل، كما في حديث أبي سفيان عن هرقل...[(٤)]

وهكذا نلاحظ استقرار الفكرة لديه بناء على حديث أبي سفيان.

---

(١) البداية والنهاية ٣/٤٩، ٥٧، ٦٦

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٣١٣

(٣) الحديث في صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي رقم ٦

(٤) حدائق الأنوار ١/٣٠٦

الثاني: إن الذين تحملوا القسط الأكبر من الابتلاء والتعذيب هم الأرقاء والموالي، وكانت فتنتهم على ملأ من الناس، بينما امتنع الآخرون بأقوامهم، ومن عذب منهم عذب ضمن قبيلته وفي شِعبه.. ولذا لم ينتشر أمرهم ولم يُذكروا كثيراً. ولهذا انتشرت أخبار فتنة الضعفاء.. ولم يذكر ذلك عن غيرهم إلا قليلاً.

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمار وأمه سمية، وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس...[1]

وقال صاحب حدائق الأنوار: وامتنع جماعة ممن أسلم بعشائرهم من أذى المشركين، وبقي قوم مستضعفون في أيدي المشركين يعذبونهم بأنواع العذاب كعمار بن ياسر[2].

وقال ابن إسحاق: ... ثم إن قريشاً تذامروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم[3].

وقال ـ في بيان صورة من تلك الصور ـ: إن رجالاً من بني مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد، حين أسلم أخوه الوليد بن المغيرة، وكانوا قد أجمعوا على أن يأخذوا فتية منهم كانوا قد أسلموا، منهم سلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، فقالوا له ـ وخشوا شرهم ـ: إنا قد أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذي أحدثوا، فإنا نأمن بذلك في غيرهم. قال: هذا فعليكم به فعاتبوه وإياكم نفسه... فأقسم لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلاً... فقالوا: لو أصيب بأيدينا لقتل أشرفنا... فتركوه[4].

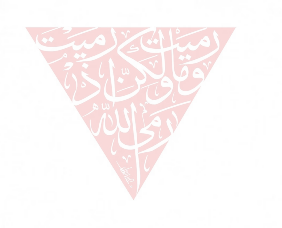
---

(١) البداية والنهاية ٣/٢٨

(٢) حدائق الأنوار ١/٣١٥

(٣) سيرة ابن هشام ١/٢٦٨

(٤) سيرة ابن هشام ١/٣٢١



وواضح من هذا أن التعذيب كان ضمن القبيلة. . . وأن الذي له من يمنعه لم يصله الشر، وأما الذين لا قبائل لهم كبلال فكان تعذيبهم في الأماكن العامة، ويشارك به الجميع، وفي هذه الساحات العامة استشهدت سمية وزوجها ياسر، وهانت على بلال نفسه في الله. .

ومن هذا نتبين أن المسلمين الأوائل كانوا بين ممتنع بقومه، وبين مفتون في أهله ـ إكراماً له أو لأهله ـ وبين معذب مفتون من قبل الجميع، وهؤلاء هم الأرقاء، ولهذا انتشر ذكرهم، ولا يعني هذا أنهم هم الغالبية العظمى من المسلمين الأول.

أما ما ورد في حديث أبي سفيان فيما يتعلق بالضعفاء، فليس المقصود بهم الأرقاء، كما يتبادر للذهن، ولذا وجدنا ابن حجر رحمه الله في شرحه للبخاري يرفض أن يأخذ كلمة «الأشراف» على عمومها بل يقول: والمراد بالأشراف هنا ـ في الحديث ـ أهل النخوة والتكبر منهم، لا كل شريف، حتى لا يرد مثل أبي بكر وعمر وأمثالهما ممن أسلم قبل السؤال. ثم قال في شرح «فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه» معناه: أن أتباع الرسل في الغالب أهل الاستكانة لا أهل الاستكبار الذين أصروا على الشقاق بغياً وحسداً كأبي جهل وأتباعه[1].

وهكذا أوضح ـ رحمه الله ـ أن الشرف يقصد به ما يرادف التكبر.

كما ينبغي أن نعلم أن أبا سفيان كان ـ يومئذٍ ـ عدواً لله ولرسوله، ولم يألُ جهداً في التقليل من أمر رسول الله ﷺ، وقد صرح بذلك، فقد سأله هرقل: هل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكنني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة، وجاء في رواية أبي الأسود عن عروة مرسلاً: خرج أبو سفيان إلى الشام ـ فذكر الحديث ـ إلى أن قال: فقال أبو سفيان: هو ساحر كذاب، فقال هرقل: إني لا أريد شتمه ولكن كيف نسبه؟. . .[2]

---

(١) فتح الباري ١/٣٥ ـ ٣٦

(٢) فتح الباري ١/٣٥ ـ ٣٦

وهكذا نلاحظ أن حديث أبي سفيان لا يصلح حجة للفكرة، لأنه من عدو، همه التقليل من شأن عدوه، ثم إن الحديث جرى بينه وبين هرقل بعد صلح الحديبية، أي يوم كان قد مضى على الهجرة أكثر من ست سنوات، ويوم كان من أتباع الرسول ﷺ الكثير الكثير من الأشراف بما تحمله هذه الكلمة من المعاني المتعددة. ولهذا يمكن القول بأنه كان صريحاً في كذبه.

وأما قول هرقل «فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل» فالضعف معناه اللين والاستكانة وقابلية الخير والتقرب منه، وبغض الشر والابتعاد عنه، وليست هي في مقابل الشرف الذي يعني الرفعة والأصالة في النسب والاحترام والتقدير في العشيرة والأهل، كما فهم ذلك من كلام ابن حجر.

على أن قريشاً قد أعطت «للضعف» مفهوماً جديداً، حيث أصبح وصفاً لكل من اتبع رسول الله ﷺ مهما كان شأنه، يؤيد هذا قول أبي جهل للمطعم بن عدي حينما أجار رسول الله ﷺ ـ بعد عودته من الطائف ـ وكان هو وبنوه بكامل سلاحهم: أمجير أم متابع؟ فقال: بل مجير، قال: إذن لن تخفر، ولو كان متابعاً لما استطاع أن يفعل ما فعل ولم يكن قوياً.. فما كان المطعم أقوى من عمر.

ونتساءل بعد هذا: لماذا لم تكن الدعوة سريعة الخطا في مكة طالما أنها تستقطب الضعفاء؟.. ولماذا لم ينضم إليها كل أولئك الذين كانوا تحت سلطة قريش، وهم أضعاف الذين أسلموا؟

إن الانضمام إلى صف المسلمين يومئذٍ لم يكن مغنماً.. وقد مات من مات تحت التعذيب، والذين أسلموا يومئذٍ لم يكن يدفعهم دافع دنيوي، وإنما هو إيمانهم بالحق الذي شرح الله صدورهم له، يشترك في ذلك الشريف والرقيق والغني والفقير.

ونحن لا نريد أن ننفي وجود الضعفاء والأرقاء، ولكن الذي ننفيه أن يكونوا هم الغالبية، لأن هذا مخالف للحقائق الثابتة، ولو كانوا كذلك لكانت



دعوة طبقية يقوم فيها الضعفاء والأرقاء ضد الأقوياء وأصحاب النفـوذ... ككل الحركات التي تقاد من خلال البطون.

وإنه لمن القوة لهذه الدعوة أن يكون غالبية أتباعها في المرحلة الأولى بالذات من كرام أقوامهم، وقد آثروا في سبيل عقيدتهم أن يتحملوا أصنافاً من الهوان ما سبق لهم أن عانوها أو فكروا بها.

إن قناعتنا قائمة على أن الإسلام كان ينساب إلى النفوس الطيبة التي هيأها الله تعالى لهذا الأمر، وسبق بعض الأرقاء والضعفاء إلى اعتناقه منذ الأيام الأولى هو الدليل على عالمية هذا الدين، ونعتقد أنه لو كانت لدينا إحصاءات لسكان أهل مكة يومئذٍ لوجدنا أن نسبة هؤلاء الضعفاء الذين أسلموا إلى الضعفاء الذين لم يسلموا ليست بأكثر من نسبة الأشراف الذين أسلموا إلى غيرهم من أقوامهم ممن لم يسلم.

ومما يؤيد وجهة النظر هذه ما نقله ابن كثير عن ابن إسحاق في صدد الحديث عن غزوة أحد حيث قال: فلما التقى الناس كان أول من لقيهم ـ يعني المسلمين ـ أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة[1]. وهذا يعني أن عدد العبيد الذين كانوا مع قريش لا يستهان به وقد خرجوا لتأييد الباطل ونصرة الشرك، بل إن هناك أحداثاً مهمة كان أبطالها من هؤلاء العبيد، منها: مقتل حمزة رضي الله عنه الذي كان على يد وحشي ـ العبد الحبشي ـ، ومنها: ما قام به العبد الحبشي الآخر صؤاب من رفع لواء المشركين بعد أن حلت بهم الهزيمة... فكان ذلك سبباً لتجمعهم مرة أخرى[2].

وبهذه الشواهد الكثيرة نستطيع أن نؤكد أن دعوة الإسلام لم تقم على الأرقاء والضعفاء وأن عددهم كان ضئيلاً، الأمر الذي لا يسمح بالقول بأنهم كانوا أكثرية المسلمين، أو عامتهم، أو معظمهم.

---

(١) البداية والنهاية ٤/١٦

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٧٨

٣



الهجرة إلى الحبشة

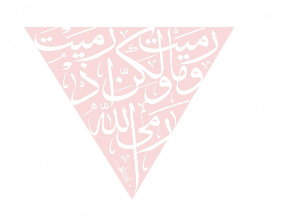
هل هي هجرة واحدة أم هجرتان؟
وهل كان من المهاجرين رجوع واحد أم رجوعان؟
وهل كان الرجوع إلى مكة أم إلى المدينة؟
وهل. . .؟

إن تعدد الروايات وكثرتها بشأن هجرة الحبشة تجعل الدارس في حيرة من أمره للوهلة الأولى، فهناك خلاف في أصل الموضوع، وهو كونها هجرتين، وهناك اختلافات أخرى مما أدى إلى عدم الوضوح في شأن هذه الحادثة من حوادث السيرة.

وهذا ما يدعونا إلى بذل الجهد، والأناة في مقابلة الروايات، وإمعان النظر في تحديد الوقت الذي جرت فيه الأحداث.

ومما يشعر بأهمية هذا البحث توقف الإمامين ابن القيم وابن حجر ـ رحمهما الله ـ عنده. واستشكال بعض الأمور المتعلقة بهذه الحادثة.

ولدى الرجوع إلى الروايات، تبين أنه يمكن تصنيفها في فئتين: روايات مجملة وأخرى مفصلة، وهنا لا بد لنا من الرجوع إلى القاعدة الأصولية من حمل المجمل على المفصل، وهناك اختلافات فرعية لا بد فيها من إعمال النظر، واللجوء إلى الترجيح.



ونبدأ بعرض موجز لكل من الروايات ـ المجملة والمفصلة ـ ثم نصل إلى المناقشة وتسجيل النتائج . .

الروايات المجملة :

وخير ما يمثل هذا النوع : رواية ابن إسحاق كما رواها ابن هشام، ونسوق ملخصها فيما يلي :

بدأ ابن هشام حديثه عن الهجرة إلى الحبشة تحت عنوان : «ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة» فذكر أول من هاجر إليها فعدد المهاجرين الأول وهم عشرة رجال وأربع نسوة.

ثم قال : قال ابن إسحاق : ثم خرج جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، وذهب بعد ذلك يعدد أسماء المهاجرين من بطون قريش بطناً بطناً، ثم قال : فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين ـ سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً، أو ولدوا بها ـ ثلاثة وثمانين رجلاً إن كان عمار بن ياسر فيهم . . .

ثم ذكر قصة إرسال قريش في طلب المهاجرين من النجاشي . . . وبعد ذلك ذكر قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه . . .

ثم قال تحت عنوان «ذكر من عاد من أرض الحبشة لما بلغهم إسلام أهل مكة».

قال ابن إسحاق : وبلغ أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلامُ أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم ذلك، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفياً.

ثم ذكر أسماء الذين عادوا، ثم قال : فجميع من قدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلاً . . .

ذلك خلاصة ما جاء عند ابن هشام.

ورجح ابن كثير رواية ابن إسحاق على غيرها.

وممن نحا منحى الاختصار ابن حزم في كتابه «جوامع السير» وهو لم يخرج عن الإطار العام الذي رسمته رواية ابن إسحاق التي هي الرواية الأم بالنسبة للروايات المجملة.

الروايات المفصلة

تعد رواية ابن سعد في الطبقات نموذجاً وافياً لهذه الروايات، ونلخصها بما يلي:

خرج أصحاب الهجرة الأولى في رجب سنة خمس من المبعث، وهم أحد عشر رجلاً، فيهم: عبدالله بن مسعود، وأربع نسوة، وخرجت قريش في آثارهم فلم يدركوهم.

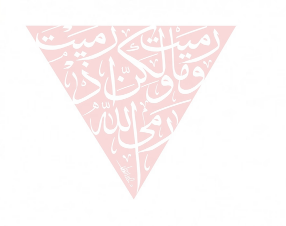
ثم كانت قصة الغرانيق في مكة، وكانت سبب رجوعهم في شهر شوال من السنة الخامسة من المبعث.

ثم اشتد البلاء، فأذن ﷺ بالخروج مرة ثانية - وهي الهجرة الثانية - وكان عدد من خرج في هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلاً، ومن النساء ثماني عشرة امرأة، فلما سمعوا بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً، ومن النساء ثماني نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحبس بمكة سبعة نفر، وشهد بدراً منهم أربعة وعشرون[1].

وتلتقي رواية عروة بن الزبير مع رواية ابن سعد في تقرير وجود هجرتين، وأن عدد المهاجرين في الأولى أحد عشر رجلاً، منهم: عبدالله بن مسعود، وأربع نسوة، وأنهم رجعوا إلى مكة إثر سماعهم بقصة الغرانيق...

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٢٠٤



وأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه خرجوا بعدها، وأرسلت قريش وفدها إلى النجاشي في طلبهم[1].

وتلتقي أيضاً رواية موسى بن عقبة مع رواية ابن سعد، فتؤكد وجود هجرتين، وأن الثانية كانت عقب رجوع أصحاب الهجرة الأولى، ولكنه يذكر أن سبب الرجوع الأول هو سماع المهاجرين بإسلام أهل مكة[2].

ونستطيع القول بأن ابن الأثير قرر في كتابه «الكامل» جميع ما جاءت به رواية ابن سعد.

المناقشة والاستنتاج:

ومن مقارنة هذه الروايات بعضها مع بعض نستطيع تقرير النتائج التالية:

١) وجود هجرتين إلى الحبشة:

وتقرير وجود هجرتين صريح في رواية ابن سعد، وموسى بن عقبة، وابن الزبير، ويؤيد ذلك أيضاً رواية ابن إسحاق، حيث قال بعد ذكر أسماء أصحاب الهجرة الأولى: «ثم خرج جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون...»، و«ثم» هنا للتراخي، ولهذا ذهب ابن كثير إلى أن المهاجرين كانوا زمرتين، الأولى وهي من ذكرهم ابن إسحاق أولاً، والزمرة الثانية التي فيها جعفر، واستعمال كلمة «زمرة» هنا هو ما قال عنه كتاب السيرة هجرة.

ويؤكد هذا فهم ابن هشام حين قال في عنوانه «ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة» فلو لم يكن هناك ثانية لما كان بحاجة إلى ذكر كلمة «الأولى».

٢) كان رجوع المهاجرين الأول قبل بدء الهجرة الثانية. وأدلة ذلك:

---

(١) مغازي رسول الله، لعروة بن الزبير، «النسخة المستخرجة» جمع وتحقيق محمد مصطفى الأعظمي ص ١٠٥ ـ ١١١.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٦٧/٣، وفتح الباري ١٨٩/٧



أولاً - تصريح بعض الروايات بذلك، وهي رواية ابن سعد، وابن الزبير، وموسى بن عقبة وما وافقها[1].

ثانياً - أنهم لو لم يرجعوا لما أمكن تسميتها هجرة مستقلة، الأمر الذي تناقلته كتب السير وشروح السنة، ولذهبوا مذهبهم في هجرة المدينة المنورة، فقد عدت هجرة واحدة على الرغم من أن المهاجرين إليها هاجروا على دفعات.

ثالثاً - إن سبب الرجوع الأول غير سبب الرجوع الثاني كما سنوضحه في فقرة تالية.

٣) أصحاب الهجرة الأولى:

إن عدد المهاجرين في الهجرة الأولى هو عشرة رجال وأربع نسوة، كما في رواية ابن إسحاق، وأما ذكر ابن مسعود إضافة إليهم كما في روايتي ابن سعد وابن الزبير فإنه معارَض بأمور:

- فهناك عدد من الروايات تدل على شهود ابن مسعود حادثة إسلام عمر بن الخطاب، وكان إسلامه بعد هجرة المهاجرين في المرة الأولى[2]، فقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب[3]. وقال أيضاً: ما استطعنا أن نصلي حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر[4]، فليس من المعقول أن يكون مهاجراً ثم يشهد إسلام عمر ويصرح بما رأى من عز المسلمين إثر ذلك.

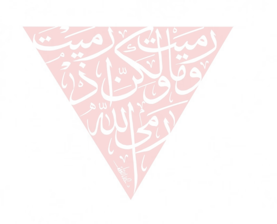
---

(١) يؤكد الزرقاني في شرح المواهب أن أصحاب الهجرة الأولى قدموا جميعاً في شوال إلى مكة. قال: وهو ما ذكره اليعمري والحافظ [شرح الزرقاني ١/٢٧٩].

(٢) هذا ما تؤكده رواية ابن إسحاق، ويؤكده أيضاً حديث عمر مع أم عبدالله بنت أبي حثمة زوجة عامر بن ربيعة، وإظهار رقته، وطمعها في إسلامه، وهي من المهاجرات في الهجرة الأولى.

(٣) رواه البخاري برقم ٣٦٨٤

(٤) رواه ابن أبي شيبة والطبراني. انظر شرح الزرقاني على المواهب ١/٢٧٧



- كانت هجرة ابن مسعود مع جعفر - وهي الثانية - كما جاء في مسند أحمد عن ابن مسعود قال: بعثنا رسول الله إلى النجاشي ونحن نحـوًا من ثمانين رجلاً فيهم: عبدالله بن مسعود وجعفر[1].

وهذه الرواية تؤكد أيضاً أن الهجرة الثانية غير الأولى.

- وقد جزم ابن إسحاق بأن ابن مسعود إنما كان في الهجرة الثانية[2].

٤) سبب الرجوع الأول:

تقرر أكثر الروايات - كما رأينا - أن سبب رجوع أصحاب الهجرة الأولى هو سماعهم بإسلام أهل مكة، وسبب ذلك عند ابن سعد وابن الزبير هو قصة الغرانيق.

٥) تاريخ الهجرة الأولى:

لا خلاف بين الروايات التي ذكرت تاريخ الهجرة الأولى، فهي متفقة على أن ذهابهم كان في رجب من السنة الخامسة من البعثـة، وأن عودتهم كانت في شهر شوال من العام نفسه[3].

٦) أصحاب الهجرة الثانية:

اتفقت الروايات على أن عدد المهاجرين مع جعفر - وهي الهجرة الثانية - هو ثلاثة وثمانون رجلاً، وثماني عشرة امرأة، على خلاف في أمر عمار بن ياسر.

٧) العائدون إلى مكة:

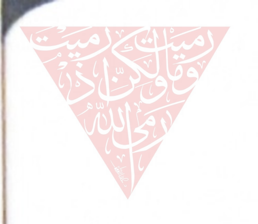
اتفقت الروايات على أن عدد الـذين رجعوا إلى مكـة من مهاجـري الهجرة الثانية هو ثلاثة وثلاثون رجلاً وثماني نسوة.

---

(١) البداية والنهاية ٣/٦٩

(٢) فتح الباري ٧/١٨٩

(٣) هذا ما ذكره ابن سعد ١/٢٠٤، وابن كثير في البداية والنهاية ٣/٦٦، والطبري ٢/٣٢٩، وفتح الباري ٧/١٨٨، وكذا الكامل لابن الأثير.



٨) **سبب الرجوع الثاني:**

إن سبب رجوع هؤلاء الثلاثة والثلاثين رجلاً ومن معهم من النساء ـ وهو الرجوع الثاني ـ هو ما ذكره ابن سعد في روايته، من سماعهم بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة.

وهذا ما أكدته رواية عائشة رضي الله عنها عند البخاري وأحمد، وهي تتحدث عن هجرة أبيها إذ قالت: «... فقال النبي ﷺ: إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ـ وهما الحرتان ـ فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة»(١).

فهذه الرواية تقرر بصراحة سبب عودتهم، وهو سماعهم بالإذن بالهجرة إلى المدينة.

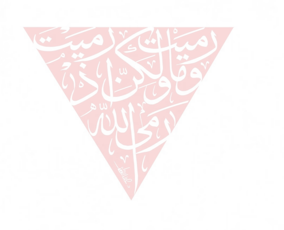
وأما ما ورد في رواية ابن هشام مما يوهم أن سبب عودتهم هو سماعهم بإسلام أهل مكة، إذ قال تحت عنوان «ذكر من عاد من أرض الحبشة لما بلغهم إسلام أهل مكة»: قال ابن إسحاق: وبلغ أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم ذلك... ثم ذهب يعدد أسماء جميع من عاد من الحبشة حتى بلغوا ثلاثة وثلاثين فقال: فجميع من قدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلاً..

فالإيهام كان نتيجة التعميم في العنوان، فليس الذين عدد أسماءهم كان سبب عودتهم ذلك، وإنما كان سبب عودة بعضهم وهم أصحاب الهجرة الأولى، ولذا فالعنوان إنما كان للفقرة الأولى، ثم استطرد فذكر أسماء الذين رجعوا من الحبشة إلى مكة.

وإذا علمنا أن الذين رجعوا في المرة الأولى كانوا ضمن من رجع في المرة الثانية زال الإشكال.

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٩٠٥، وفي المسند ١٩٨/٦



وقد سلك ابن هشام المسلك نفسه في الموضوع ذاته، فقال في عنوان الهجرة: «ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة» وبعد ذكر المهاجرين الأول استطرد فذكر أسماء جميع المهاجرين إلى الحبشة، فكان فعله هذا سبباً للاشتباه بأنها هجرة واحدة. كما كان ذكر جميع العائدين تحت العنوان السابق سبباً في الاشتباه بأن السبب عام، وأن من عادوا جميعاً عادوا بسبب سماعهم بإسلام أهل مكة.

وأما عدم ذكره سبب عودة المهاجرين في الهجرة الثانية فهو مسلك لم ينفرد به وحده، بل شاركه في ذلك آخرون من كتاب السيرة، ولعل السبب في ذلك أن عودتهم كانت متأخرة، وقد سار في تصنيفه حسب السنين، فأرجأ ذكر ذلك حتى يأتي وقته ثم نسي ذكر ذلك.

٩) الرجوع الثاني كان إلى مكة:

ومما يؤكد أن رجوع من عاد من أهل الهجرة الثانية إنما كان إلى مكة أمور:

أولاً ـ اتفاق روايتي ابن إسحاق وابن سعد على النص التالي: «إن المسلمين بالحبشة لما سمعوا بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم [إلى مكة][1] ثلاثة وثلاثون رجلاً، فمات منهم رجلان بمكة، وحبس منهم سبعة، وشهد منهم بدراً أربعة وعشرون»[2].

ولما عد ابن هشام العائدين من الهجرة الثانية ذكر عبدالله بن سهيل بن عمرو، وقال: وكان حبس عن رسول الله ﷺ حين هاجر إلى المدينة[3]،

فهذا يدل صراحة على رجوعهم إلى مكة، كما في رواية ابن إسحاق نصاً، وبدلالة السياق من رواية ابن سعد، فلو كان رجوعهم إلى المدينة مباشرة لما مات منهم من مات بمكة، ولما حبس منهم فيها من حبس.

---

(١) كلمة [إلى مكة] هي من رواية ابن إسحاق.

(٢) رواية ابن إسحاق نقلها فتح الباري ٧٤/٣ ورواية ابن سعد في الطبقات ٢٠٧/١

(٣) سيرة ابن هشام ٣٦٨/١

ثانياً - كما يؤكد رجوعهم إلى مكة حديث أم سلمة عند الإمام أحمد، الذي تتحدث فيه تفصيلاً عن الهجرة إلى الحبشة، وفيه مقابلة جعفر للنجاشي، الأمر الذي يبين أنها كانت تتحدث عن الهجرة الثانية، وفي آخره تقول: فكنا عنده - أي النجاشي - في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة[1].

وهكذا صرحت بأن الرجوع كان إلى مكة.

ثالثاً - خبر هجرة أبي سلمة وأم سلمة من مكة إلى المدينة، وما حصل من حبس أم سلمة من قبل أهلها، وانتزاع ولدها منها من قبل أهل زوجها، وكان ذلك بعد العودة من الهجرة الثانية إلى الحبشة[2].

رابعاً - وجود عبدالله بن مسعود في مكة قبل الهجرة إلى المدينة، وهو أحد المهاجرين الهجرة الثانية، وذلك بدلالة روايته لحادثة السجود في سورة النجم وهي إنما كانت بعد عودة مهاجري الهجرة الثانية كما سنوضح ذلك بالتفصيل في بحث الغرانيق.

خامساً - وأما قول عائشة في حديث البخاري الذي ورد في الفقرة السابقة (رقم ٨) وهو: «ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة» ولم تقل إلى مكة، فهو من باب الاختصار والإجمال، وقد تكفلت الروايات الأخرى بإيضاح ذلك كما ذكرنا، ولهذا قال صاحب الفتح في بيان قولها «إلى المدينة»: رجعوا إلى مكة فهاجر إلى أرض المدينة معظمهم لا جميعهم[3].

١٠) تاريخ الرجوع الثاني:

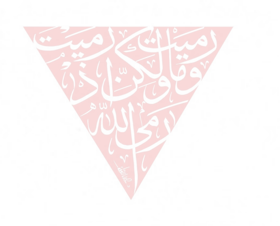
وبناء على ما سبق، نستطيع تحديد تاريخ عودة هؤلاء الثلاثة والثلاثين

---

(١) الفتح الرباني للبنا في ترتيب المسند ٢٠/٢٢٦ - ٢٢٩، وسيرة ابن هشام ١/٣٣٤ - ٣٣٨، قال البنا: رواه ابن إسحاق وأورده الهيثمي وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع. اهـ أي: فالحديث صحيح.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٤٦٨

(٣) فتح الباري ٧/٢٣٤



من الحبشة، بأنه كان بعد بيعة العقبة الأولى، أو بتعبير أدق بعد إذن الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة.

١١) وفد قريش:

من المتفق عليه بين الروايات أن وفد قريش إلى النجاشي إنما كان بشأن جعفر وأصحابه ـ أي أصحاب الهجرة الثانية ـ، وأن المتكلم باسم المسلمين أمام النجاشي هو جعفر بن أبي طالب.

أما أصحاب الهجرة الأولى فقد ذكرت بعض الروايات أن قريشاً خرجت في أثرهم فلم يدركوهم[1]، ولم يعارض هذا الخبر برواية ما.

١٢) عودة جعفر وأصحابه:

من المتفق عليه أن من بقي من مهاجري الهجرة الثانية في الحبشة، قد مكثوا فيها مع جعفر بن أبي طالب إلى أن كان قدومهم إلى المدينة بأمر من الرسول ﷺ وذلك في العام السابع من الهجرة وكان وصولهم يوم فتح خيبر.

الخلاصة:

نخلص مما سبق إلى تقرير ما يأتي بكل ثقة واطمئنان:

١) كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة، وعدد المهاجرين فيها عشرة رجال وأربع نسوة ـ وهم الذين ذكرتهم رواية ابن إسحاق ـ وأن عبدالله بن مسعود ليس واحداً منهم، وأن عودتهم كانت في شهر شوال من العام نفسه، وأن سببها سماعهم بإسلام أهل مكة، كما في بعض الروايات.

٢) ثم كانت الهجرة الثانية بعد ذلك بسبب اشتداد الضغط على المسلمين، وكان عدد أفرادها ثلاثة ـ أو اثنين ـ وثمانين رجلاً، وثماني عشرة امرأة، وكان عبدالله بن مسعود واحداً من هؤلاء المهاجرين.

---

(١) ذكر ذلك ابن سعد والطبري وغيرهما.

وقد رجع قسم منهم إلى مكة، وعددهم ثلاثة وثلاثون رجلاً منهم عبدالله بن مسعود... وسبب عودتهم سماعهم بإذن النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة، وقد حبس بعضهم بمكة، ومات اثنان منهم فيها، وهاجر باقيهم بعد ذلك إلى المدينة.

وأما جعفر ومن بقي معه في الحبشة فقد عادوا إلى المدينة مباشرة في العام السابع من الهجرة.

مناقشة إشكال ابن القيم:

واستكمالاً للموضوع من جميع جوانبه نعرج على مناقشة الإشكال الذي طرحه ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه «زاد المعاد»[1]

قرر ابن القيم وجود هجرتين إلى الحبشة، وأن عبدالله بن مسعود كان واحداً من أصحاب الهجرة الأولى الذين عادوا إلى مكة إثر سماعهم بإسلام أهلها، وأن عبدالله بن مسعود عاد معهم.

ثم كانت الهجرة الثانية، وأصحاب هذه الهجرة لم يعودوا إلا في العام السابع من الهجرة حيث عادوا مع جعفر إلى المدينة.

ثم يقول ابن القيم متسائلاً: «ولم يذكر أحد قدوم مهاجري الحبشة إلا في القدمة الأولى بمكة، والثانية عام خيبر مع جعفر، فمتى قدم ابن مسعود في غير هاتين المرتين ومع من؟»[2]

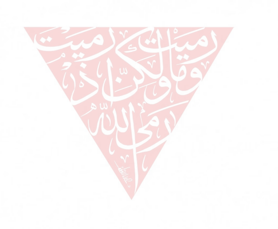
وبما أن بعض المهاجرين في المرة الثانية حضروا غزوة بدر من أمثال عثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود فإن ابن القيم يقول: «فإما أن يكون هذا وهمًا ـ أي حضورهم في بدر ـ وإما أن يكون لهم قدمة أخرى قبل بدر، فيكون لهم ثلاث قدمات: قدمة قبل الهجرة، وقدمة قبل بدر، وقدمة عام خيبر»[3]

---

(١) زاد المعاد ٣/٢٣ وما بعدها، بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

(٢) زاد المعاد ٣/٢٥

(٣) زاد المعاد ٣/٢٦



وبناء على هذا التصور للهجرة إلى الحبشة نشأ إشكالان:

الأول: سببه الحديث الذي رواه الشيخان وأحمد من حديث عبدالله بن مسعود حيث قال: (كنا نسلم على النبي ﷺ وهو في الصلاة فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد علينا، وقال: إن في الصلاة شغلاً)[1].

الثاني: سببه حديث زيد بن أرقم عند البخاري حيث قال: (إنا كنا لنتكلم في الصلاة على عهد النبي ﷺ يكلم أحدنا صاحبه بحاجته حتى نزلت ﴿**حافظوا على الصلوات**﴾ الآية فأمرنا بالسكوت)[2].

وخلاصة الإشكال الأول: هو متى حدث سلام ابن مسعود على النبي ﷺ؟ ويجيب ابن القيم على ذلك: بأنه كان بعد القدمة الأولى أي في العام الخامس من المبعث ويقول: هذا هو الصواب. وذلك لأن ابن مسعود لم يعد إلى مكة - كما يرى ابن القيم - إلا مرة واحدة.

ولكن هذه الإجابة على الإشكال الأول أنشأت إشكالاً آخر بالنسبة لحديث زيد بن أرقم، وهو من صغار الصحابة ومن الأنصار، فكيف يتأخر السماح بالكلام بالصلاة حتى أسلم الأنصار؟ أي إلى العام الثاني عشر من المبعث...

ثم أجاب - رحمه الله - بإجابات غير مقنعة...

وبناء على ما تحقق لدينا من أمر الهجرة إلى الحبشة نستطيع الإجابة على الإشكالين بما يلي:

تقرر لدينا أن ابن مسعود لم يكن في الهجرة الأولى، وأنه إنما كان في الهجرة الثانية، وأنه عاد إلى مكة مع العائدين من الهجرة الثانية إليها، وأن ذلك حدث بعد الإذن بالهجرة إلى المدينة..

(١) رواه البخاري برقم ١١٩٩

(٢) رواه البخاري برقم ١٢٠٠

وقد كان سلامه على النبي ﷺ - وهو في الصلاة - في هذا الوقت أي قبل الهجرة إلى المدينة. . . أي بعد بيعة العقبة الأولى.

ومن المعلوم أن الرسول ﷺ كان قد أرسل مصعب بن عمير إلى المدينة بعد هذه البيعة، فلما نسخ الكلام في الصلاة بمكة بلغ ذلك مصعباً في المدينة فتركه أهل المدينة، كما ذهب إليه ابن حبان(١)، أو أن ذلك بلغهم حين تمت بيعة العقبة الثانية.

وبهذا يتأكد أن وقت الحديثين واحد ويزول الإشكال.

وأما ذكر قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات﴾ في حديث زيد بن أرقم، فهو إشكال آخر شارك في طرحه الإمام ابن حجر، كما شارك في طرح الإشكال السابق(٢). ويتمثل هذا في أن الآية مدنية، وحادثة النهي عن الكلام في الصلاة مكية؟

وقد أجاب القاضي أبو الطيب الطبري وغيره بقولهم: لا مانع أن يتقدم الحكم ثم تنزل الآية بوفقه(٣).

أقول: ومن أمثلة ذلك نزول آية التيمم وفيها ذكر فرضية الوضوء في المدينة علماً بأن الوضوء كان مفروضاً بمكة قبل الهجرة(٤).

وبهذا يزول الإشكال في القضية كلها، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) فتح الباري ٧٤/٣

(٢) فتح الباري ٧٤/٣

(٣) فتح الباري ٧٤/٣

(٤) آية التيم هي ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم. . .﴾ المائدة: ٦ ومن المعلوم أن نزولها كان في غزوة بني المصطلق.

قال ابن عبد البر: معلوم عند جميع أهل المغازي أنه ﷺ لم يصل منذ افترضت عليه الصلاة إلا بوضوء، ولا يدفع ذلك إلا جاهل أو معاند، قال: والحكمة في نزول آية الوضوء - مع تقدم العمل به - ليكون فرضه متلواً بالتنزيل [فتح الباري ٤٣٤/١].

٤



أخذت هذه القضية مساحة غير يسيرة من وقت كتاب السيرة وشراح الحديث، وقد اتجه جميع النقاد المسلمين إلى نفي هذه القصة من حيث الموضوع، وإن توقف بعضهم عند قضية الشكل - أي السند -.

والملاحظ أن أكثر الذين ناقشوا هذه القضية - فيما اطلعت عليه - كانت مناقشتهم حول موضوع القصة ولم يتطرقوا إلى جوانب أخرى ذات مساس كبير بالموضوع ولو فعلوا لحسمت قضية تلك المناقشات.

وإني في هذه الصفحات القليلة سوف أبين خلاصة للمناقشات ثم أحاول دراسة بعض الجوانب التي هي ذات ارتباط وثيق بالموضوع، وما دراسة هجرة الحبشة التي مررنا بها إلا التمهيد لهذا الموضوع كما سوف نلاحظ.

وإني منذ البدء أحمد الله تعالى أن وفق إلى أدلة حاسمة في الموضوع لم أر فيما اطلعت عليه أحداً توقف عندها. وما ذاك إلا بفضل الرجوع إلى القرآن الكريم في دراسة النصوص المتعلقة بالموضوع.

ملخص القصة:

خرج المهاجرون الأول إلى الحبشة بناء على توجيه من النبي الكريم.

ولم يطل غيابهم، حيث عادوا بعد ثلاثة أشهر حين بلغهم أن قريشاً صافوا الرسول ﷺ وكفوا عنه.

وكان سبب ذلك أن رسول الله ﷺ قرأ سورة النجم فلما بلغ ﴿**أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى**﴾ ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى. فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، وقد علمنا أن الله يخلق ويرزق ويحيي ويميت، ولكن آلهتنا تشفع عنده، فلما بلغ السجدة سجد وسجد معه المسلمون والمشركون كلهم إلا شيخاً من قريش، رفع إلى جبهته كفاً من حصى فسجد عليه وقال: يكفيني هذا، فحزن النبي ﷺ حزناً شديداً وخاف من الله خوفاً عظيماً، فأنزل الله تعالى:﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيَّته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته**﴾ سورة الحج ٥٢ - ٥٥[١].

معنى الغرانيق:

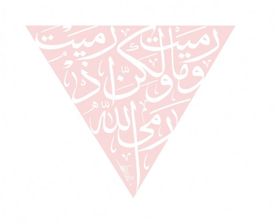
الغرانيق: جمع، واحدها غرنوق وغرنيق، وهو الذكر من طير الماء. سمي به لبياضه، وقيل: هو الكركي.

وقال شراح القصة بأن المقصود بها الأصنام، وأن الأصنام شبهت بالطيور التي تعلو في السماء وترتفع، فالأصل: تلك آلهة كالغرانيق في ارتفاعها[٢].

موقف العلماء:

أجمع العلماء على إنكار مضمون القصة، إذ لا إشكال بأنها تتعارض مع فكرة التوحيد، ومدح إله غير الله كفر ولا يصح نسبته لنبي.

(١) عن مختصر السيرة للشيخ محمد بن عبد الوهاب.
(٢) شرح الزرقاني على المواهب ١/ ٢٨٠



وقد ذهب جلهم إلى ما ذهب إليه القاضي عياض والإمام فخر الدين الرازي من أن هذه القصة باطلة وموضوعة ولا يجوز القول بها إلا لبيان بطلانها. وقد قال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ وقال تعالى: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾

وأكد البيهقي هذا الاتجاه من حيث السند فقال: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون بهم. وقال غيره إن هذه القصة من وضع الزنادقة لا أصل لها.

وذهب الحافظ ابن حجر إلى إثبات أصل للقصة مع إنكار معناها ووجوب تأويله، وذكر أنه قد خرجها ابن أبي حاتم والطبري وابن المنذر وكذا ابن مردويه والبزار وابن إسحاق وموسى بن عقبة وأبو معشر. واعترف بأنها كلها إما ضعيف أو منقطع ولكنها مع كثرتها تدل على أن لها أصلاً، وهناك ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح ولكنها مراسيل. ثم قال: إذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر، ثم ذهب يفتش عن مخرج[1].

المناقشة:

تلك هي خلاصة القصة وموقف العلماء منها. وقد روج لها المستشرقون، ووجدوا فيها مطعناً، وهي قصة تالفة بإجماع العلماء، ونحاول مناقشة ذلك فيما يلي، سنداً ومتنًا:

أما من حيث السند: فقد قال الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الحج بعد أن سرد روايات القصة: «وكلها مرسلات ومنقطعات» اهـ.

وما ذهب إليه ابن حجر لا يغير في الأمر شيئاً، فقد صحح ثلاثة أسانيد، وقال: لكنها مراسيل. ومن المعلوم أن المرسل من أقسام الضعيف. وقد ذهب جمهور العلماء والمحدِّثون خاصة إلى أن الحديث المرسل لا تقوم به حجة[2].

(١) فتح الباري ٨/٤٣٩

(٢) الحديث النبوي للدكتور محمد لطفي الصباغ ص ٢٠٩ طبع المكتب الإسلامي ١٤٠٧ هـ.



ومما يؤكد بطلان هذه القصة أن جانباً منها ورد في الصحيح، وليس فيه ذكر الغرانيق بل روي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة حديث الغرانيق. فهذا دليل على بطلانها من جهة الإسناد والرواية.

ومن هذه الطرق الصحيحة ما رواه البخاري عن عبدالله بن مسعود قال: (أول سورة أنزلت فيها سجدة «والنجم» قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد مَنْ خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف)[1] ورواه أيضاً الإمامان أحمد ومسلم دون ذكر اسم أمية بن خلف[2].

كما رواه الإمام البخاري أيضاً عن ابن عباس قال: (سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس)[3].

هذا من حيث السند.

وأما من جهة المتن فالأدلة على فساد هذه القصة متعددة، منها:

١) إن تشبيه الأصنام بالغرانيق غير معقول المعنى، فالغرنوق طائر مائي، وهو ليس في بيئة أهل مكة، وهم المخاطبون حينئذٍ، ثم إذا كان وجه الشبه في العلو والقوة فهما متوفرتان في غيره من الطيور مثل النسر، ولم يسبق للعرب أن ورد هذا الاستعمال في كلامها شعراً أو نثراً، فكيف فهموا أن المقصود به تلك الأصنام؟

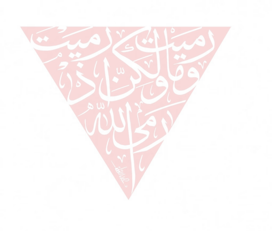
٢) وبغض النظر عما سبق فلننظر في الآيات الكريمة بعد إقحام هذه الكلمات فيها فإنها تصبح كالآتي **﴿أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى﴾** تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى **﴿ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذن قسمة ضيزى، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان..﴾**.

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٨٦٣

(٢) رواه أحمد في المسند ١/٣٨٨ ومسلم برقم ٥٧٦ في باب سجود التلاوة.

(٣) رواه البخاري برقم ٤٨٦٢



يقول سيد قطب رحمه الله:

«إن سياق السورة ذاته ينفيها ـ أي روايات الغرانيق ـ نفياً قاطعاً... فهؤلاء المشركون كانوا عرباً يتذوقون لغتهم، وحين يسمعون هاتين العبارتين المقحمتين ويسمعون بعدهما ﴿**ألكم الذكر وله الأنثى..**﴾ ويسمعون بعد ذلك ﴿**إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى..**﴾ ... حين يسمعون هذا السياق كله فإنهم لا يسجدون مع الرسول ﷺ لأن الكلام لا يستقيم، والثناء على آلهتهم وتقرير أن لها شفاعة ترتجى لا يستقيم، وهم لم يكونوا أغبياء كغباء الذين افتروا هذه الروايات...».

٣) ورد في ختام القصة أن قوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته..**﴾ وأن ذلك كان تسلية للنبي ﷺ عن حزنه الشديد الذي أصابه عقب الحادثة.

ومن المعلوم ـ كما مر ـ أن الهجرة الأولى إلى الحبشة كانت في السنة الخامسة من البعثة، وكانت العودة في العام نفسه، بينما كان نزول سورة الحج، التي منها هذه الآية في المدينة، بل هي من أواخر السور المدنية نزولاً، فهل يعقل أن تتأخر هذه المواساة أكثر من ثماني سنوات؟!

٤) وأخيراً، فإن هذه القصة تتعارض مع نصوص القرآن الكريم، كما صرح بذلك جميع علماء المسلمين، فقد قال تعالى: ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿**سنقرئك فلا تنسى**﴾[(٢)] وقال تعالى ﴿**ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين**﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾[(٤)].

---

(١) سورة النجم، الآية ٣

(٢) سورة الأعلى، الآية ٦

(٣) سورة الحاقة، الآيات ٤٤ ـ ٤٧

(٤) سورة الحجر، الآية ٩

فكل هذه النصوص الكريمة تدل على حفظ الله تعالى لهذا القرآن. . . وهذا وحده كاف لسقوط هذه القصة بغض النظر عن كل ما سبق من علل في السند والمتن.

* * *

أما وقد انتهينا من البرهان على فساد قصة الغرانيق وتلفها، فإن أربعة أسئلة تطرح نفسها، وهي بحاجة إلى الإجابة عليها، حتى تتضح جميع ملابسات هذه القضية، وهي:

١) ما هو تفسير آية سورة الحج التي سبق ذكرها؟
٢) هل هناك من علاقة بين سورة النجم وبين الهجرة إلى الحبشة؟
٣) ما هو سبب رجوع مهاجري الهجرة الأولى إلى الحبشة؟
٤) ما هو تعليل سجود المشركين عند سماع سورة النجم؟

ونحاول ـ إن شاء الله تعالى ـ الإجابة على هذه الأسئلة:

تفسير آيات سورة الحج:

قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم. ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد. وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾**[١].

إن بعض المفسرين تأثروا عند تفسيرهم لهذه الآيات بقصة الغرانيق، وقد يكون من الغريب أن ابن كثير على الرغم من نفيه القاطع لهذه القصة وإبطالها، لم يستطع التخلص من أثر قصة الغرانيق حين أراد تفسير هذه

---

(١) سورة الحج، الآيات ٥٢ ـ ٥٤



الآيات، وكذلك الأمر لدى ابن حجر فيما ساقه من أقوال... فإن أثر القصة واضح فيها[1].

ومن الغريب أيضاً جنوح كثير من المفسرين عند تفسيرهم كلمة «تمنى» إلى الخروج عن مدلولها الأصيل في اللغة العربية وهو: أراد، أو: هيأ في نفسه ما يهواه، كما جاء في تفسير العلامة أبي السعود.

ولعل خير ما كتب في تفسير هذه الآيات الكريمة هو ما قاله صاحب الظلال - رحمه الله - ونوجز رأيه بما يلي:

إن النص يقرر أن هذه القاعدة عامة في الرسالات كلها، مع الرسل كلهم، فلا بد أن يكون المقصود أمراً عاماً يستند إلى صفة في الفطرة مشتركة بين الرسل جميعاً بوصفهم من البشر، مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل.

إن الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس، يكون أحب شيء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة، وأن يدركوا الخير الذي جاؤوهم به من عند الله فيتبعوه... ولكن الدعوات كثيرة، والرسل بشر محدودو الأجل، وهم يحسون هذا ويعلمونه، فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق... يودون مثلاً لو هادنوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتاً لعل الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة، ويودون مثلاً لو جاروهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم التربية الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة.

ويودون ويودون... من مثل هذه الأماني والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها... ذلك على حين يريد الله أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة، وفق موازينها الدقيقة، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فالكسب الحقيقي للدعوة في التقدير الإلهي الكامل غير المشوب بضعف البشر وتقديرهم... هو أن تمضي على تلك الأصول على وفق تلك الموازين، ولو

---

(١) فتح الباري ٨/٤٣٨ - ٤٤٠



خسرت الأشخاص في أول الطريق، فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقاييسها كفيل أن يثني هؤلاء الأشخاص أو من هم خير منهم إلى الدعوة في نهاية المطاف، وتبقى مُثُلُ الدعوة سليمة لا تخدش، مستقيمة لا عوج فيها ولا انحناء.

ويجد الشيطان في تلك الرغبات البشرية، وفي بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات، فرصة للكيد للدعوة وتحويلها عن قواعدها، وإلقاء الشبهات حولها في النفوس، ولكن الله يحول دون كيد الشيطان ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل، وعما يكون قد وقع منهم من خطأ في اجتهادهم للدعوة، كما حدث في بعض تصرفات الرسول ﷺ وفي بعض اتجاهاته، مما بين الله فيه بياناً في القرآن.

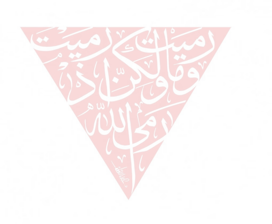
بذلك يبطل الله كيد الشيطان ويحكم الله آياته، فلا يبقى هنالك شبهة في الوجه الصواب، والله عليم حكيم.

فأما الذين في قلوبهم مرض من نفاق أو انحراف والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين فيجدون في مثل هذه الأحوال مادة للجدل واللجاج والشقاق... وأما الذين أوتوا العلم فتطمئن قلوبهم إلى بيان الله وحكمه.

وفي حياة النبي ﷺ وفي تاريخ الدعوة الإسلامية نجد أمثلة من هذا تغنينا عن تأويل الكلام الذي ذهب إليه الآخذون بقصة الغرانيق.

ثم ضرب ـ رحمه الله تعالى ـ أمثلة من حياة النبي ﷺ منها: قصة ابن أم مكتوم التي نزل بسببها قوله تعالى: ﴿**عبس وتولى أن جاءه الأعمى**..﴾ وبالقصة التي يرويها سعد بن أبي وقاص والتي كانت سبباً لنزول قوله تعالى: ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي**...﴾ وبقصة زواجه ﷺ من زينب بنت جحش... مما يمكن الرجوع إليه مفصلاً في الظلال.

وبهذا اتجه ـ رحمه الله تعالى ـ الاتجاه الصحيح في تفسير هذه الآيات بعيداً عن قصة الغرانيق الفاسدة.



سورة النجم وهجرة الحبشة:

بعد أن قرأت قصة الغرانيق وما دار حولها من جدل ومناقشات طويلة أحببت أن أرجع إلى القرآن الكريم... ووقفت أمام سورة «النجم» أتأملها...

وما إن تلوت الأسطر الأولى منها، حتى شعرت أن هناك أمراً مهماً في بدء السورة لم يستوقف كل الذين ناقشوا أمر قصة الغرانيق، وهو أن هذه الآيات تتحدث عن قصة الإسراء والمعراج، ولنستمع إلى هذه الآيات:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم. والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى، ذو مِرَّة فاستوى، وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى، أفتمارونه على ما يرى، ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ الآيات ١ ـ ١٨.

وإذا كانت هذه الآيات قد تناولت جانباً من الحديث عن الإسراء والمعراج فمعنى ذلك أن سورة النجم نزلت بعد حادثة الإسراء والمعراج[١].

وإذا علمنا أن حادثة الإسراء كانت قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين[٢]، فذلك يعني أن نزول سورة النجم كان بعد هذا الوقت، أي بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة بخمس سنين، في أقل التقديرات.

ونتساءل: هل يمكن أن تكون تلاوة سورة النجم سبباً لعودة المهاجرين في الهجرة الأولى. وهي لم تنزل إلا بعد عودتهم إلى مكة بما لا يقل عن خمس سنين؟ ما نعتقد أن أحداً يقول بذلك.

---

(١) من المتفق عليه أن سورة النجم مكية وأنها نزلت دفعة واحدة. ومما يؤكد نزولها دفعة واحدة حديث ابن مسعود المتفق عليه الذي فيه قصة السجود..

(٢) تتراوح الأقوال في تحديد وقت الإسراء بين سنة وثلاث سنين قبل الهجرة انظر الفتح ٢٠٣/٧



ولكن ألا يحتمل أن تكون سبباً للرجوع الثاني(١)؟

إنها من حيث التوقيت الزمني تصلح لذلك لولا الحديث التالي:

فقد روى البخاري ومسلم وأحمد ـ واللفظ للبخاري ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (أول سور أنزلت فيها سجدة «والنجم» قال: فسجد رسول الله وسجد مَنْ خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً، وهو أميه بن خلف)(٢).

إن هذا الحديث يفيدنا في أمرين مهمين:

الأول ـ إنه نص صريح بحضور عبدالله بن مسعود حادثة السجود ومشاركته فيها، فهو راوي الحديث وقد أكد حضوره برؤيته ذلك الرجل الذي لم يسجد، واكتفى بأخذه كفاً من حصى والسجود عليه. وحضوره في مكة في هذا الوقت يعني أنه قد عاد من الحبشة مع من عاد من أصحاب الهجرة الثانية.

وإذن فحادثة السجود وقعت بعد عودة المهاجرين، وهي بالتالي لا تصلح أن تكون سبباً لعودتهم.

الثاني: أن عبدالله رجع من هجرته إلى مكة مباشرة ومكث فيها إلى أن هاجر إلى المدينة وهذا يؤكد حديثه الذي ذكرناه في الموضوع السابق من أمر الكلام في الصلاة والذي استشكله الإمامان ابن القيم وابن حجر وغيرهما.

نستطيع الآن أن نقول بكل الثقة والاطمئنان: إن حادثة السجود في سورة النجم لا علاقة لها من قريب أو بعيد في قضية رجوع المهاجرين ـ الأول أو الثاني ـ وهذا ما يؤكد بشكل قاطع نفي قصة الغرانيق وبطلانها.

وهذا الدليل لإبطال قصة الغرانيق لم أر من وقف عليه أو استدل به من قبل.

---

(١) وهذا ما توهمه رواية ابن إسحاق وقد ناقشت ذلك في البحث السابق.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٨٦٣ ورواه مسلم برقم ٥٧٦ ورواه أحمد ٣٨٨/١



سبب رجوع مهاجري الحبشة :

نحاول في هذه الفقرة التعرف على سبب رجوع مهاجري الهجرة الأولى، أما سبب رجوع مهاجري الهجرة الثانية فقد بيناه في البحث السابق بما لا يدع مجالاً للشك أو الريبة.

وقد رأينا أن كتاب السيرة يذكرون أحد سببين لهذا الرجوع، وقد بينا بطلان أحدهما وهو قصة الغرانيق، وأما القول الآخر فهو الذي يعد سبب رجوعهم هو سماعهم بإسلام أهل مكة.

وبعد البحث لم أجد مستنداً لهذا القول، والقول بحد ذاته غير مقنع، فليس من المعقول أن يسلم أهل مكة هكذا بين عشية وضحاها. بل إن هذا القول ناتج عن قصة الغرانيق[1].

والذي أراه: أن الهجرة الأولى إلى الحبشة تعد الأولى من نوعها في تاريخ قريش إن لم نقل في تاريخ العرب. وقد تعود أهل مكة الرحلة في طلب الرزق. وقد نص القرآن الكريم على رحلتي الشتاء والصيف، وهما رحلتان تجاريتان، بواعثهما مادية صرفة، يخفف آلام الغربة فيهما الأمل في الربح المتوقع، والاطمئنان إلى قرب العودة إلى الوطن بعد انتهاء عملية البيع والشراء.

ولكن هجرة الحبشة كانت بباعث غير مادي، والغربة أمر قاس على النفس، وخاصة إذا كانت إلى قوم تفصلك عنهم حواجز اللغة والأعراف والعادات والتقاليد، وإن مدة هذه الهجرة مفتوحة وغير محددة، فالمهاجرون لا يدرون متى ستنصاع قريش إلى كلمة الحق... صحيح أن النجاشي أكرمهم، ولكنهم في عيشهم إنما هم مع شعب النجاشي، لا مع النجاشي، ولقد عبرت السيدة أسماء بنت عميس عن الضيق الذي كانوا يكابدونه في الحبشة، وهي

---

(١) ذهب ابن حجر ـ رحمه الله ـ إلى أن سبب العودة هو السجود في سورة النجم ومنه أشيع إسلام أهل مكة [فتح الباري ٧/٢٣٤]
وقد بينا أن السجود لا يصلح لأنه متأخر جداً عن وقت الحادثة.

وإن كانت من أصحاب الهجرة الثانية إلا أن المشاعر واحدة في هذا الميدان، ولنستمع إلى حديثها كما رواه البخاري.

«... دخلت أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة ـ وأسماء عندها ـ فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار البُعَداء والبُغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ: ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله...[1]».

انظر معي إلى قولها: «كنا في دار البعداء والبغضاء» وقولها: «ونحن كنا نؤذى ونخاف».

إن هذا ليعبر عن الضيق والألم وعدم الراحة، تقول هذا وهي من أصحاب الهجرة الثانية، والمهاجرون فيها كثير يواسي بعضهم بعضاً، ويخفف بعضهم عن بعض آلام الغربة... أما المهاجرون الأول فعددهم قليل، جاؤوا إلى مجتمع غريب عنهم في كل شيء، فلا شك أن مشاعر الغربة كانت قاسية عليهم، الأمر الذي جعلهم يرون إيذاء قومهم محتملاً إزاء ما كانوا يعانون من غربتهم، وهذا ما دفعهم إلى العودة، وربما ساعد على ذلك وصول نبأ إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما.

سبب سجود المشركين:

إتماماً لوضوح الصورة واستكمالاً للبحث، يحسن بنا أن نتكلم عن سجود المشركين عند تلاوة سورة النجم كما وعدنا بذلك.

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٢٣٠

وهذه الحادثة وردت في الصحيح، كما ذكرنا ذلك في أول المحاضرة، وكتّاب السيرة لم يعنوا بالبحث عن هذه القضية، فالذين نفوا قصة الغرانيق اعتبروا الحادثة باطلة كلها ولم تستوقفهم قضية السجود الواردة في الصحيح بل لم أر من أشار إليه، والذين قالوا بصحتها لم يكونوا بحاجة إلى ذلك لأنها كانت نتيجة لقصة الغرانيق المزعومة.

وقبل البدء أجدني بحاجة إلى الإجابة على سؤال ملحٍّ هو: كيف تسنى للرسول ﷺ أن يجمع المسلمين والمشركين في مكان واحد ثم يقرأ عليهم سورة النجم؟

وإيضاحاً لذلك أقول: لم يكن المسلمون ـ كما يتبادر للوهلة الأولى ـ بمعزل عن الحياة الاجتماعية بمكة على الرغم من تلك العداوة القائمة بينهم وبين المشركين، فقد كانوا يجالسونهم ويناقشونهم ويدلون بآرائهم في مجالسهم، بل ربما تحرش المشركون بالمسلمين من باب السخرية والإيذاء فيكون الجواب إصراراً على العقيدة وتمسكاً بها، وأكتفي في سبيل بيان ذلك بذكر الحادثتين التاليتين:

- دخل عثمان بن مظعون مكة بعد عودته من الهجرة الأولى من الحبشة في جوار الوليد بن المغيرة ثم ردَّ عليه جواره حتى لا يكون متميزاً على غيره من المسلمين. وجلس يوماً في مجلس لقريش ينشد فيه لبيد شعره فكان مما قال:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان: صدقت، فقال لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول ـ فقام رجل فلطم عثمان.

- والحادثة الأخرى: هي لقاء أبي جهل بالرسول ﷺ صبيحة ليلة الإسراء فقال له: هل من شيء؟ فقال ﷺ: نعم... وجمع أبو جهل المشركين ليسمعوا حديث الإسراء واجتمع المسلمون أيضاً...

وإذا عرفنا أن المسجد الحرام كان النادي الذي يجتمع فيه القوم مسلمهم وكافرهم. . . فإني لا أستبعد أن يكون الرسول ﷺ قد أتى إلى المسجد الحرام فسأله أحدهم مثل سؤال أبي جهل فأجابه بتلاوة سورة النجم فكان ما كان، ويؤيد هذا أن الحادثة هذه كانت بعد حادثة الإسراء. . . فلعلهم أحبوا أن يعرفوا ما هو الجديد، فطرحوا السؤال نفسه، وفي مثل هذه الحالة عليهم أن يستمعوا ما طلبوه. . .

ومن المحتمل أن الرسول ﷺ نزلت عليه سورة النجم، فخرج إلى المسجد، والمسجد فيه المسلم والمشرك، فتلا عليهم السورة.

وإذن فلم يكن المسلمون بمعزل عن المشركين، وقد استمعوا هذه السورة من أولها إلى آخرها حيث آية السجدة فيها.

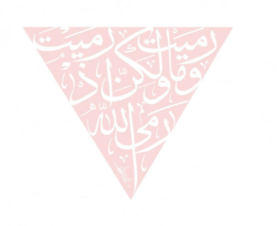
وأما تعليل سجودهم، فهناك أكثر من عامل أدى إليه فيما نظن، وربما اجتمعت هذه العوامل مع بعضها لدى بعضهم. ونذكر منها:

١) إن الكلمة البليغة تأخذ على العربي لبه، ومن هنا جاء القرآن الكريم في بعض ما جاء به يتحداهم بهذا الجانب. . . وقد عجزوا. . . وكان كل منهم في نفسه كل الرغبة إلى استماع كلام الله تعالى. . . ولكن التواصي بعدم استماعه هو الذي جعلهم يبتعدون ظاهراً وفي نفس كل منهم ميل شديد إلى الاستماع، والأمثلة على ذلك كثيرة:

منها: إحدى روايتي إسلام عمر رضي الله عنه.

ومنها: ما رواه ابن هشام من استماع أبي سفيان وأبي جهل والأخنس ابن شريق القرآن ليلاً من الرسول ﷺ دون أن يراهم، ودون أن يرى أحدهم الآخر، فلما ذهبوا إلى بيوتهم جمعهم الطريق، فلام بعضهم بعضاً. . . لأنهم هم كبار القوم الذين يصدونهم عن السماع.

ومنها: ازدحام النساء والصبيان على أبي بكر حين كان يقرأ في صلاته. . .



والاستماع هنا سيعقبه حتماً إعجاب واستحسان. . . كما قال الوليد ذلك صراحة. فلما وصل ﷺ في تلاوته إلى السجدة وجدوا أنفسهم منساقين إلى السجود بدافع الإعجاب وقد أخذت الآيات من نفوسهم مأخذها.

٢) إن قناعة قريش قائمة بصدق الرسول ﷺ ولذا وجدنا عتبة بن ربيعة عندما ذهب لمفاوضة الرسول ﷺ . . فبدأ ﷺ بتلاوة سورة فصلت، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿**فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**﴾ فما كان من عتبة إلا أن وضع يده على فم الرسول ﷺ يريد ألا يتم تلاوته، وهو خائف مذعور وجعل يناشده الرحم خوفاً من نزول تلك الصاعقة، وربما كان سجودهم هنا انطلاقاً من هذا المعنى فقد ورد قبل الأمر بالسجود قوله تعالى: ﴿**أزفت الآزفة . .**﴾.

٣) وكان من عاداتهم وما توارثوه أن الإنسان إذا دعي عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه تلك الدعوة ولم يصبه مكروه، وهذا ما فعله أبو سفيان حين سمع دعوة خبيب بن عدي فألقى بنفسه وبابنه معاوية إلى الأرض.

فلنستحضر هذه المعاني جميعاً.

من تذوق لبلاغة الكلمة.

ومن يقين بصدق النبي ﷺ وبالتالي من تخوف من وعيده.

ومن تلهف إلى سماع هذا القرآن.

ولنستحضر ـ في ذهننا ـ أن التالي هو رسول الله ﷺ وهو من أنزلت عليه هذه الآيات.

وأن هذه الآيات تطرق أسماع الحاضرين جميعاً لأول مرة.

أقول: لنستحضر كل هذا ثم لنستمع إلى المقطع الأخير من هذه السورة. . .



قال تعالى:

﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى، وأن إلى ربك المنتهى، وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات وأحيا، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى، وأن عليه النشأة الأخرى، وأنه هو أغنى وأقنى، وأنه هو رب الشعرى، وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى، وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى، فغشاها ما غشى، فبأي آلاء ربك تتمارى، هذا نذير من النذر الأولى. أزفت الآزفة، ليس لها من دون الله كاشفة، أفمن هذا الحديث تعجبون، وتضحكون ولا تبكون، وأنتم سامدون، فاسجدوا لله واعبدوا﴾.

فهل هناك من يتمالك نفسه عن السجود؟ إن لم يكن لاعتبار واحد منها فللاعتبارات السابقة مجتمعة.

٥

غدير خم

هذه الحادثة من حوادث السيرة دفعني إلى اختيارها أن أكثر المؤلفين في السيرة قد غض النظر عن ذكرها.

ولعل سبب إهمالها يعود إلى أن ابن هشام ذكرها تعقيباً على إرسال علي رضي الله عنه إلى اليمن ودون أن يذكر المكان الذي حدثت فيه وهو «غدير خم» ثم حذا الذين كتبوا في السيرة حذوه، وربما لم يعلم بعضهم أن ما كتبه يتعلق بما عرف بغدير خم.

وقد ذكرت هذه الحادثة في كتابي في السيرة، ثم وقع بيدي الجزء الأول من كتاب عنوانه «الغدير» لمؤلفه عبد المحسن الأميني وتبين لي بعد قراءتي له أن هذا الكتاب يقع في تسعة مجلدات محورها هذه الحادثة، التي ضخمتها الأهواء، ومالت بتفسيرها عن جادة الصواب.

ونعود إلى الموضوع.

غدير خم: اسم موضع بين مكة والمدينة قريب من الجحفة[1].

وملخص الحادثة التي تسمى باسمه: أن الرسول ﷺ بعد عودته من مكة، وقد أدى مناسك حجة الوداع توقف في هذا المكان، وكان ذلك يوم

(١) الجحفة قرية قديمة بينها وبين مكة نحو ثلاث مراحل تقع جنوب رابغ بما يقارب ١٥ كم وتسمى الآن المقابر، وكانت ميقاتاً لأهل الشام ثم جعلت رابغ بدلاً عنها.

الأحد الثامن عشر من ذي الحجة، وكانت فيه شجيرات، فأمر الرسول ﷺ أن يقممن ثم جمع الصحابة وخطب فيهم خطبة بين فيها أشياء، وذكر فيها من فضل علي رضي الله عنه وأمانته وعدله وقربه منه صلى الله عليه وسلم.

وأسوق بعض الأحاديث التي ذكرت ذلك:

روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال: اشتكى الناس علياً، فقام رسول الله ﷺ خطيباً، فسمعته يقول: أيها الناس: لا تشكوا علياً، فوالله إنه لأخشن في ذات الله، أو في سبيل الله من أن يشكى... ورواه الإمام أحمد...

وقد أورد ابن إسحاق هذا تعقيباً على مجيء علي من اليمن، وفي سياق حجة الوداع دون أن يذكر أن ذلك كان بغدير خم[1].

وروى الإمام أحمد عن بريدة قال: غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت علياً فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتغير فقال: يا بريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلي مولاه.

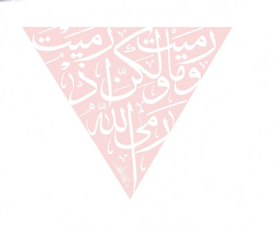
قال ابن كثير: وكذا رواه النسائي وإسناده جيد قوي، رجاله كلهم ثقات[2].

وروى النسائي عن زيد بن أرقم قال: لما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقممن ثم قال: (كأني قد دعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثِّقلين: كتاب الله وعترتي، أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عَلَيَّ الحوض، ثم قال: الله مولاي، وأنا ولي كل مؤمن، ثم أخذ بيد علي فقال: من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) قال ابن كثير: تفرد به النسائي

---

(١) رواه ابن هشام، السيرة ٦٠٣/٢ وفي البداية ٢٠٩/٥

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢٠٩/٥، وقال في صحيح الجامع الصغير: صحيح.



من هذا الوجه، قال شيخنا أبو عبدالله الذهبي: وهذا حديث صحيح[1].

تلك هي النصوص التي زكاها ابن كثير وقد أورد كثيراً غيرها وأشار إلى ضعفها:

ونعود للتعرف على سبب هذا الموضوع:

ونلاحظ في رواية ابن إسحاق ذكر السبب حيث قال أبو سعيد: اشتكى الناس علياً... وأن هذه الشكوى كانت صادرة عن الذين كانوا معه في اليمن كما يبين ذلك سياق الحديث.

وفي رواية بريدة: يتضح تماماً أن تنقصه علياً كان حين غزا معه اليمن.

ورواية زيد حددت لنا أن الكان كان غدير خم، كما حددت لنا الزمان وهو أثناء العودة من مناسك الحج.

ونفهم من هذا أن السبب يرجع إلى ذهاب علي إلى اليمن الذي أعقبه عودته منها إلى مكة ليؤدي مناسك الحج مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

وإذن لا بد لنا من معرفة قصة ذهابه إلى اليمن وما حدث فيها.

ذهاب علي إلى اليمن:

روى البخاري عن البراء قال: بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن، قال: ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه، قال: مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقّب معك فليعقّب، ومن شاء فليقبل، فكنت فيمن عقب معه. قال: فغنمت أواقي ذوات عدد[2].

وفي رواية البخاري عن أنس قال: قدم علي رضي الله عنه على النبي

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٥/٢٠٩

(٢) رواه البخاري برقم ٤٣٤٩



ﷺ من اليمن[1] حاجاً[2]:

وفي البخاري من رواية بريدة: بعث النبي ﷺ علياً إلى خالد ليقبض الخمس[3].

والذي يبدو من هذه الروايات أن علياً كان له أكثر من مهمة في ذهابه يومئذٍ إلى اليمن... منها: قبض الخمس، أو قسم الخمس، أو قسم الغنيمة ـ ولا تعارض، فقسم الخمس هو تعينه من الغنيمة بكاملها وهو بالتالي قسم الغنيمة وهو قبض الخمس ـ.

ومنها: أن يحل محل خالد في قضية جهادية حصلت منها غنائم كما تشير الرواية الأولى رواية البراء... ولا يمنع هذا من وجود مهمات أخرى. ومنها أن يلتقي بعد ذلك مع النبي ﷺ في موسم الحج.

قال ابن إسحاق: لما أقبل علي من اليمن ليلقى رسول الله ﷺ بمكة، تعجل إلى رسول الله واستخلف على جنده الذين معه رجلاً من أصحابه، فعمد ذلك الرجل فكسى كل رجل من القوم حلة من البز الذي كان مع علي، فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل، قال: ويلك ما هذا؟ قال: كسوت القوم ليتجملوا به في الناس، قال: ويلك، انزع قبل أن ينتهى به إلى رسول الله ﷺ. قال: فانتزع الحلل من الناس فردها في البز. قال: وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم[4].

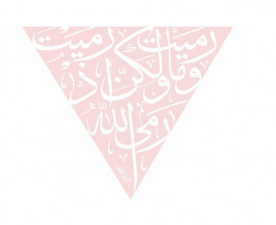
وفي رواية أخرى لابن إسحاق عن يزيد بن طلحة قال: إنما وجد جيش علي بن أبي طالب الذين كانوا معه في اليمن لأنهم حين أقبلوا خلَّف عليهم رجلاً وتعجل إلى رسول الله ﷺ، فعمد الرجل فكسى كل رجل حلة، فلما دنوا خرج عليهم علي يستلقيهم فإذا عليهم الحلل، قال علي: ما هذا؟

(١) رواه البخاري برقم ١٥٥٨

(٢) رواه البخاري برقم ٤٣٥٣

(٣) رواه البخاري برقم ٤٣٥٠

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٢٠٨/٥ وسيرة ابن هشام ٦٠٣/٢



قالوا: كسانا فلان، قال: فما دعاك إلى هذا قبل أن تقدم على رسول الله فيصنع ما شاء، فنزع الحلل منهم، فلما قدموا على رسول الله اشتكوه لذلك. وكانوا قد صالحوا رسول الله، وإنما بعث علياً إلى جزية موضوعة(١).

وهاتان الروايتان تتفقان على أمر سبب الخلاف وهو انتزاع علي رضي الله عنه الحلل من أيدي الناس، والرواية الثانية تبيّن لنا مصدر هذه الحلل وأنها كانت من الجزية، وهي بهذا تحل لنا إشكالاً مهماً، فالحلل لم تكن من الخمس كما ذهب إليه الزرقاني(٢) لأن الخمس خاص بالنبي ﷺ وله مصارفه الخاصة التي يقوم النبي ﷺ بتوزيعه عليها، وما كان صحابي ليجرؤ على أن يمس الخمس. فرواية يزيد بينت لنا أن هذه الحلل كانت من رصيد الجزية.

* * *

هذه الشكوى من شدة علي انتشرت أثناء الموسم بين أهل المدينة من مهاجرين وأنصار ولا شك أنها وصلت إلى سمع الرسول الكريم، وكانت خطبة غدير خم تعقيباً على هذه الشكوى وبياناً لمكانة علي.

ولكن لماذا كان هذا البيان في غدير خم ولم يكن في مكة إثر انتشار الخبر ووقوع الحادثة؟ أو لماذا لم يكن بعد الوصول إلى المدينة؟

ويمكنني الإجابة على هذا التساؤل بما يلي:

١) إن الحادثة وإن انتشرت أثناء الموسم فإن انتشارها كان محدوداً ضمن حجاج أهل المدينة، ذلك لأن الذين كانوا مع علي رضي الله عنه وعنهم كانوا من سكان المدينة من المهاجرين والأنصار، وحينما حضروا إلى الموسم لا شك بأنهم كانوا في أداء أعمال الحج مع إخوانهم من أهل المدينة فالقبائل والجماعات كانت تنزل مع بعضها متجانسة وما زال الناس كذلك حتى يومنا... ويوم دخل الرسول ﷺ مكة فاتحاً دخلت الألوية وكل لواء لقبيلة... وإذن فانتشار الخبر كان محصوراً بينهم.

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٠٦/٥

(٢) ذكر ذلك الزرقاني في شرح المواهب اللدنية ١٠٤/٣

ولذلك لم يتحدث الرسول ﷺ في ذلك في مكة حتى لا يوسع دائرة الأمر. . . وآثر إرجاء ذلك حتى كان في الطريق وقد غادرت القبائل الموسم كل إلى ديارها وكان الرسول ﷺ مع أهل المدينة وفيهم ـ بطبيعة الحال ـ أصحاب المشكلة فتحدث إليهم على انفراد وبين لهم مكانة علي رضي الله عنه.

وقصر الأمر على أصحاب العلاقة سنة من سنن الرسول الكريم، وقد رأينا في دراستنا للسيرة كيف جمع الرسول ﷺ الأنصار وحدهم وتكلم فيهم يوم عتبوا عليه في توزيع غنائم حنين[1]، وقصر الأمر عليهم فهم أصحاب العلاقة وكذلك هنا. . .

٢) ومن حكمته ﷺ أنه لم يرجىء أمر الحديث حتى يصل المدينة لأن ذلك سيتيح للمنافقين ـ الذين لم يكونوا في الحج ـ أن يشاركوا في الأمر وربما استغلوا ما في بعض النفوس. . . فسببوا الفرقة والخلاف.

* * *

ذهب الذين يعطون هذه الحادثة اهتماماً خاصاً ويكتبون فيها المجلدات إلى أنها وصية بالخلافة من الرسول ﷺ إلى علي رضي الله عنه. . .

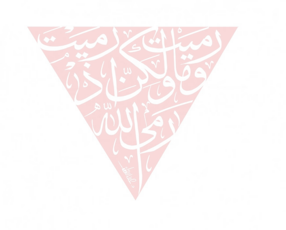
ونحن الآن لسنا في صدد مناقشة تلك المشكلة ولكننا في صدد مناقشة ما يتعلق بهذه الحادثة.

ليس من أمانة العلم في شيء أن تروى الحادثة دون بيان أسبابها، فبيان السبب يلقي الضوء الكبير على تفسير النص أو الحادثة.

١) لم يكن حديث غدير خم أكثر من بيان للحق الذي تمسك به علي رضي الله عنه وإزالة لما علق ببعض النفوس. فهذه الحلل هي ملك للمسلمين يأخذ كل منهم حقه بعد التوزيع أما قبل ذلك فهو تعد على حدود الله، مثل ذلك الغنائم قبل توزيعها لا يحل لإنسان أن يأخذ منها خيطاً،

---

(١) انظر (من معين السيرة) ص ٤٢٤ من منشورات المكتب الإسلامي.



وتصرف الصحابي الذي استخلفه علي رضي الله عنه كان اجتهاداً منه وربما كان ذلك بإلحاح ممن كان معه... وهم مأجورون في اجتهادهم الخاطئ ولكن هذا لا يمنع من بيان الحق، بل هو الواجب.

فالقضية هي إعادة اعتبار لعلي رضي الله عنه بعد أن أسيء إليه، وهي سنة نبوية رأيناها في الخلاف بين خالد وعوف بن مالك حين قال ﷺ لعوف: هل أنتم تاركون لي أمرائي لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره[1]. ولما كانت قضية الطعن بخالد رضي الله عنه قضية فردية كانت معالجتها فردية وفقاً للمبدأ العام الذي انتهجه الرسول ﷺ في عدم توسيع دائرة المشكلة، ولما كانت قضية علي رضي الله عنه عامة كان لا بد من معالجتها في إطار الجمع الذي حدثت فيه.

٢) لو كانت القضية كذلك ـ أي للعهد لعلي بالخلافة والإمامة ـ لكان من الأجدى والأفضل أن تعلن على رؤوس الأشهاد في مكة حتى لا يعارض فيها معارض، ونتساءل عندها: لم كانت بغدير خم ولم تكن جزءاً من خطبة حجة الوداع التي أصغت إليها الألوف المؤلفة من المسلمين والتي صدروا بها عن الموسم إلى بلادهم؟!

ثم لو كان هذا الفهم صحيحاً، كيف غاب عن أبي بكر وعمر وعثمان وهم الذين تولوا الخلافة قبل علي... وغاب عن جموع المسلمين العائدين من حجة الوداع إلى المدينة، فقبل الفريق الأول بتولي الخلافة وسكت الفريق الثاني على ذلك الباطل؟!

إن أي نظر موضوعي بعيد عن الهوى يقرر أن غدير خم لا علاقة له بقضية الإمامة والخلافة من بعيد أو قريب.

---

(١) انظر (من معين السيرة) ص ٣٧٧.



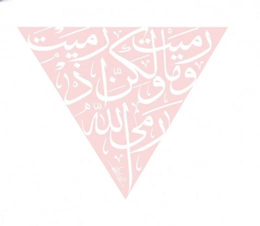
لَا غَالِبَ إِلَّا اللهُ





الفهرس

الموضوع	الصفحة



الموضوع | الصفحة



كتب للمؤلف

١ ـ من معين السيرة

٢ ـ دراسة جمالية إسلامية في ثلاثة أجزاء

الأول: الظاهرة الجمالية في الإسلام

الثاني: ميادين الجمال

الثالث: التربية الجمالية في الإسلام

٣ ـ الفن الإسلامي التزام وإبداع

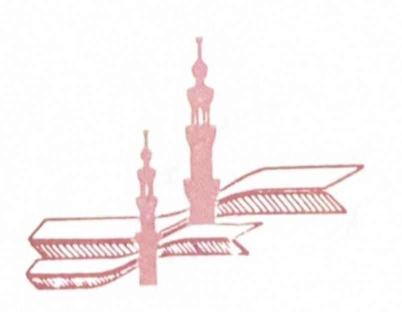
تحت الطبع

تحقيق «المواهب اللدنية» للقسطلاني









الجمعية الإسلامية بمدريد

ص. ب ٢٨٠٨٠ - مدريد - أسبانيا

هاتف ٥٧١٤٠٤٠